



كنيسة مارمرقس القبطية
الأرثوذكسية - بمصر الجديدة

تأملات في حياة يوسف

أبونا/ داود لمعى

الكتاب: تأملات في حياة يوسف.

إعداد: أبونا/ داود لمعى.

الناشر: كنيسة مارمرقس - بمصر الجديدة.

الطبعة: ثانية معدلة - سبتمبر ٢٠١٣

رقم الإيداع:

المطبعة: مطابع النوبار - العبور.



صاحب القداسة
الأنبا تواضروس الثاني بابا الإسكندرية
وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة الطبعة الثانية

"بالإيمان يُوسُفُ عِنْدَ مَوْتِهِ ذَكَرَ خُرُوجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَوْصَى مِنْ جِهَةِ عِظَامِهِ" (عب ١١ : ٢٢).. استحق يوسف أن يكون الوحيد من وسط الأسباط الذى يُذكر اسمه لامعاً فى شجرة الإيمان التى ذكرها بولس الرسول.. تابعاً لإبراهيم وإسحق ويعقوب.

- بالإيمان يوسف احتمل موت أمه راحيل وهو طفل.
- بالإيمان يوسف أحبه إخوته ولم يترك نفسه للكراهية.. واثقاً فى الرؤى التى أعلنت له.
- بالإيمان يوسف عاش أميناً كعبد وأميناً كسجين.. وكان الرب معه فكان دائماً ناجحاً.
- بالإيمان يوسف قاد مصر والعالم للخروج من مجاعة كادت تودى بالآلاف إلى الموت.
- بالإيمان يوسف نظر يعقوب أبيه حياً وأخيه بنيامين بعد سنوات من الحرمان والألم.
- بالإيمان يوسف عفى عن إخوته تماماً وسامحهم وأكرمهم وقال كلمته المأثورة "أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرًّا أَمَّا اللَّهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا لِكَيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ لِيُحْيِيَ شَعْبًا كَثِيرًا" (تك ٥٠ : ٢٠).

تعالوا نتأمل فى رحلة حياة - شبيهة المسيح - يوسف، لنمتلئ بالتعزية ونشبع بأسرار عمل الله فى حياة البشر.

بصلوات صاحب الغبطة والقداسة البابا الأنبا تواضروس الثانى، الرب يحفظ حياته لنا سنياً كثيرة وأزمنة سلامة مديدة.

صلوا من أجلي...

أبونا / داود طعى

مقدمة الطبعة الأولى

"لتسكن فيكم كلمة المسيح بغنى" (كو ٣: ١٦)، بنعمة ربنا - نقدم سلسلة دراسات في الكتاب المقدس بعهديه.. قدمت كعظات ومواضيع أيام روحية، وهى أقرب إلى التأمّلات التى تحمل تطبيقات للحياة اليومية.

صورة يوسف صورة جميلة ومن الأفضل أن نقرأ قصته أكثر من مرة ونستفيد من دروسها الكثيرة، نتعلم من حياة الطاعة والطهارة والصبر والتمسك بالله مهما كانت ظروف حياتنا.

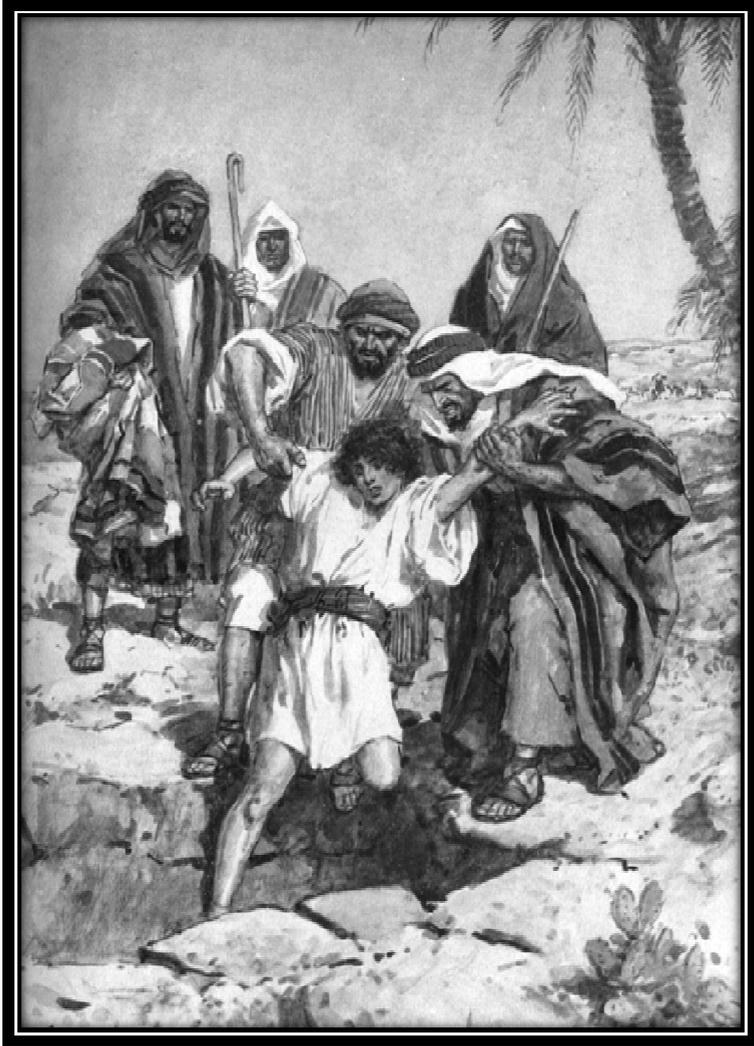
يوسف عاش حياته كعبد سجين مذلول ومظلوم لكنه صار مُخلصاً للعالم أيام المجاعة وكان رمزاً للمسيح - له المجد - الذى هو سر فرح يوسف، وفرح كل الأجيال التى جاءت بعده.

بصلوات قداسة البابا شنودة الثالث بابا الأسكندرية وبطيريك الكرازة المرقسية، نرجو لكم غذاءاً شهياً من كلمة الله الحيّة المُشبعة.

الرب يعوض كل من له تعب وليت القارئ يذكرنا جميعاً فى صلواته. ولإلهنا القدوس الأب والإبن والروح القدس كل تسييح وإكرام من الآن وإلى الأبد.

صلوا من أجلي..

أبونا/ داود طعى



طرق دراسة شخصيات الكتاب المقدس

هناك طريقتان شهيرتان لدراسة شخصيات الكتاب المقدس:

• **الطريقة الأولى:** تحليل الشخصية نفسها لتعلم منها الفضائل والحياة الروحية. فنحن نتعلم من آباءنا الأوائل مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الآباء والقديسين، فنحبهم ونتشفع بهم ونتخذهم قدوة لنا "انظروا إلى نهاية سيرتهم فتمثلوا بإيمانهم" (عب ١٣: ٧).

• **الطريقة الثانية:** ربط الشخصية بالسيد المسيح - له المجد - الذى هو محور الكتاب المقدس كله لذا فقد قال لليهود "فَتَشُوا الكُتُبَ لِأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي" (يوه: ٣٩).. فكلما فتشوا الكتب تعنى البحث عن الرب يسوع فى حياة الآباء فى العهد القديم قبل مجيء السيد المسيح له المجد.. فتش.. فستجده موجوداً فى حياتهم.. إما فى مقابلة شخصية أو فى رؤيا أو فى تشابه (رمز) مثلما كان يوسف رمزاً للمسيح له المجد.

و فى هذا الكتاب سنمزج الطريقتين معاً حتى نحصل على فوائد كل منهما، وموقع يوسف فى التاريخ معروف للجميع فأحداث العهد القديم وتسلسلها كالتالى:

- تبدأ بقصة آدم وحواء وقصة السقوط.
- ثم نتجه إلى نوح والطوفان.
- ثم قصة أبينا إبراهيم واختياره لتكوين شعب الله، ثم إسحاق.
- ثم يعقوب الذى كان له اثنا عشر ابناً الذين كوّنوا أسباط إسرائيل وكان ترتيب يوسف الحادى عشر بين إخوته.

ولادة يوسف وطفولته

"وَذَكَرَ اللَّهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللَّهُ وَقْتَحَ رَحْمَهَا، فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ ابْنًا فَقَالَتْ: «قَدْ نَزَعَ اللَّهُ عَارِي» دَعَتْ اسْمَهُ «يُوسُفَ» قَائِلَةً: «يَزِيدُنِي الرَّبُّ ابْنًا آخَرَ» (تك ٣٠: ٢٢-٢٤)

هناك فى أور الكلدانيين، ما بين نهري دجلة والفرات (العراق حالياً) كان يعقوب يقيم عند خاله لابان بعدما ترك أرض كنعان (إسرائيل حالياً) هرباً من عيسو أخيه بعدما خدعه وسرق منه البكورية والبركة.

وكان يعقوب قد تزوج لينة الابنة الكبرى لخاله لابان الذى خدعه وجعله يعمل سبع سنين إضافية مقابل زواجه من راحيل التى أحبها بشدة حتى أن سنوات العمل "كأنت فى عينيه كأيام قليلة بسبب محبته لها" (تك ٢٩: ٢٠).

وفتح الله رحم لينة لتنجب أربعة أبناء، أما راحيل فأغلق رحمها مما أشعل نار الغيرة لتلجأ إلى نفس الفكرة القديمة التى لجأت إليها سارة مع أبينا إبراهيم.

فقد كان العرف السائد وقتها أن ابن الجارية يعتبر بمثابة الابن لسيدتها، وهكذا طلبت من يعقوب أن يتزوج من جاريته "بلهة" حتى ما يطفى بعضاً من نار الغيرة التى تنهش صدرها، وهكذا أنجبت بلهة ابنين.. مما أثار غيرة الأخت الكبرى لينة التى رأت أنها توقفت عن الإنجاب مؤقتاً ويحق لها المعاملة بالمثل!.. فأعطت جاريته "زلفة" لتصبح الزوجة الرابعة ليعقوب وتنجب له ابنين آخرين.

وعادت لينة إلى الإنجاب فولدت ابنين آخرين، ليصل عدد الأبناء إلى عشرة، كل هذا وراحيل تتحرق شوقاً أن يثمر رحمها ابناً واحداً يطفى ظمأها إلى الأمومة الغائبة.

بعد هذه المقدمة الطويلة نستطيع أن نتخيل الفرحة العارمة التي صاحبت ميلاد الابن الذي انتظره أبواه طويلاً فسمياه يوسف ومعناه (الله يزيد) طلباً لابن آخر.

وهكذا نشأ يوسف في ظل ظروف عائلية مضطربة، فأبوه يتبارى مع خاله لابان في المكر والدهاء.. وكل زوجة من الأربع زوجات تربي أبناءها بطريقة مختلفة، وإخوته - الغير أشقاء - أكبر منه كثيراً في السن* فلم يشعروا نحوه بالأخوة ولا الصداقة، بل بالغيرة الشديدة من الابن المدلل للزوجة المحبوبة.

ولذا كان الطفل يوسف شديد الالتصاق بأمه راحيل، فهي الوحيدة التي يجد لديها القلب المتسع المحب الذي ينصت له ويحتويه.

ولعل مشهد الهروب الكبير ليعقوب أبيه وأسرته ظل عالماً في ذاكرة الطفل يوسف، رحلة طويل للعودة من ضفاف الفرات إلى أرض كنعان. وإن كان لم يدرك وقتها حجم المخاطر التي تعرضت لها القافلة الصغيرة والتهديد بالإبادة على يد عمه عيسو، ولكنهم نجوا بأعجوبة بعد أن تحن قلب عيسو وتعانق مع يعقوب أخيه.

وكم كان فرح يوسف عظيماً عندما أخبرته أمه أن الله قد استجاب لدعائها.. فقد أسمته يوسف - أى الله يزيد، لعلها ترزق بابن آخر- وها هو رحمها يحمل طفلاً جديداً سيكون الأخ الشقيق ليوسف. واشتعل خيال يوسف وهو يفكر في الأخ الشقيق المنتظر.. فهو الوحيد الذي قد يمكن أن يلعب معه ويشاركه دوناً عن باقي إخوته الكبار.

وأثناء ارتحال القافلة.. وعند وصولهم إلى بيت لحم.. حانت ساعة المخاض لراحيل وانتظر يوسف ميلاد أخيه.. وتهلل وهو يسمع صوت بكاء أخيه بنيامين لأول مرة.. ولكن مع حلول المساء كان صوت بكاء يعقوب وابنه

*لا نعرف على وجه الدقة فارق في السن بين يوسف وأخوته، ولكن نعرف من تك ٣٨ أنه بينما كان يوسف عبداً دون العشرين عاماً في مصر كان يهوذا أخوه - الابن الرابع للبيثة - قد زوّج اثنين من أبنائه على التوالي لتامار.

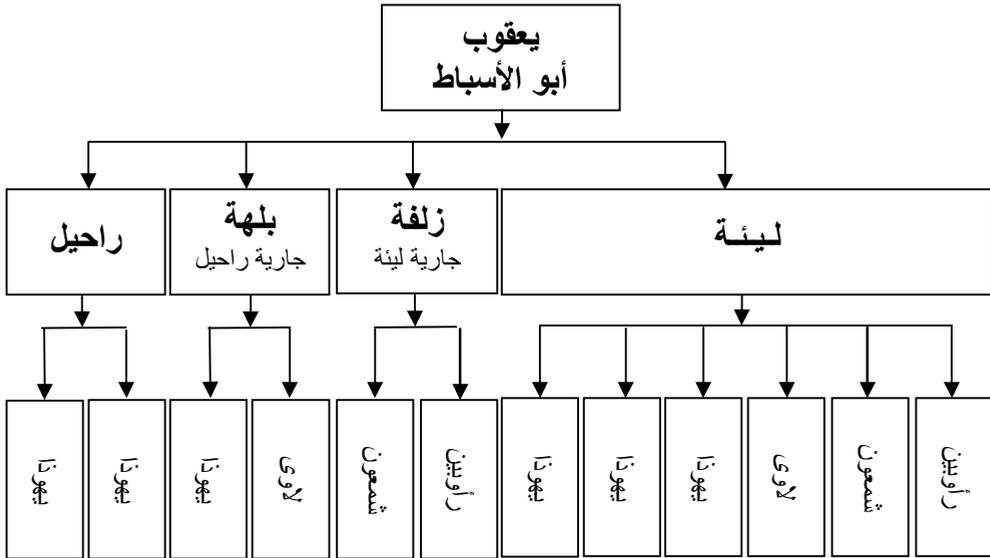
يوسف يعلو على كل صوت، فقد ماتت راحيل.. الزوجة المحبوبة والأم الحنون.

وعقب موت راحيل أغدق يعقوب على يوسف بمزيد من الرعاية والحب والإهتمام حتى يعوضه عن رحيل أمه.

وأخذ يعقوب يعزي ابنه بأن يحكى له عن إسحاق جده الذين هم على وشك اللقاء به، ولا شك أنه كان لقاءً فريداً بعد طول اشتياق وبعد رحلة غربة طويلة.

وتحت قدمي إسحاق جلس يوسف طويلاً ليستمتع من الشيخ العجوز كيف أسلم نفسه ذات يوم بين يدي أبيه ليقيده ويضعه على المذبح ويرفع السكين، ولكنه عاد حياً بعد أن أعد الله كبشاً ليُقدّم على المذبح بدلاً منه، واتسعت عينا الطفل الصغير وهو يرسم المشهد في ذهنه لتترسب في أعماقه أعظم معاني الطاعة والتسليم.

وهكذا ففي الوقت الذي لم يوجد فيه ناموس مكتوب بعد، كانت الوصايا المسلمة شفويًا من جيل إلى جيل ترسم ملامح العلاقة مع الله وفهم إرادته. وهذا يُرينا حجم وأهمية التعليم الشفوي (التقليد) ودوره الكبير عبر التاريخ.



حلم يوسف وحسد أخوته

يوسف ينقل لأبيه نيمة أخوته

"وَسَكَنَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ أَبِيهِ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. هَذِهِ مَوَالِيدُ يَعْقُوبَ:
يُوسُفُ إِذْ كَانَ ابْنُ سَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً كَانَ يَرْعَى مَعَ إِخْوَتِهِ الْعِغْمَ وَهُوَ غَلَامٌ عِنْدَ
بَنِي بَلْهَةَ وَبَنِي زَلْفَةَ امْرَأَتَيْ أَبِيهِ. وَأَتَى يُوسُفُ بِنَمِيمَتِهِمُ الرَّدِيئَةَ إِلَى أَبِيهِمْ" (تك
٣٧ : ١ - ٢)

لم يكن من السهل على يوسف التأقلم مع إخوته الكبار، وربما كان يشعر
بالغربة في وسطهم، ليست غربة بسبب اختلاف اللغة أو الأهل.. بل سببها أن
يوسف تربى تربية مختلفة عنهم، فطاعة الله وحفظ وصاياه هدف لا يغيب عن
عينيه، أما إخوته فهذا المفهوم غائب عنهم في أغلب الأحيان.

ولعل المسكين كان يشبه لوط البار الذي كان يتعذب بمعاشرة الأشرار
في سدوم وعمورة ورؤية أفعالهم الأثيمة (٢بط ٢ : ٨) ولكن لوط كان هو الذي
اختار أن يسكن وسط الأشرار بإرادته تاركاً صحبة عمه إبراهيم البار، أمّا
يوسف فلم يكن لديه حرية الاختيار، فهم إخوته وليسوا أصدقاء يختارهم حسب
رغبته أو جيران يرحل ويتركهم.

لم يكن لدى الشاب الصغير من يستطيع أن يبثه همومه سوى يعقوب
أبيه، وبسذاجة كان ينقل له ما يدور بين أبناء الجاريتين من نيمة رديئة، ولم
يستطع يوسف بخبرته المحدودة أن يدرك كم يثير هذا التصرف حنق إخوته.

التمييز بين الأبناء بسبب الغيرة

"وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ فَأَحَبَّ يُوسُفَ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ بَنِيهِ لِأَنَّهُ ابْنُ شَيْخُوخَتِهِ فَصَنَعَ لَهُ قَمِيصًا مَلُونًا. فَلَمَّا رَأَى إِخْوَتَهُ أَنَّ أَبَاهُمْ أَحَبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ أَبْغَضُوهُ وَكَمْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُكَلِّمُوهُ بِسَلَامٍ" (تك ٣٧ : ٣ - ٤)

ربما نلتمس العذر ليوسف لصغر سنه، أمّا يعقوب والده فلا يستفيد بنفس العذر وهو الشيخ المختبر.. فقد أشعل الغيرة في صدور الإخوة العشرة وهم يرون أباهم يُميّز ذلك الشاب الصغير عنهم كلهم بذلك الثوب الملون الذي لا يرتديه إلا أبناء الملوك، والأهم من ذلك هو الإعلان الضمني أن صاحب ذلك الثوب لن يشارك إخوته في أي من أعمال الرعي فيما بعد. ولا شك أن تمييز أحد الأبناء عن الآخرين هو خطأ شائع في أسلوب تربيتنا لأبنائنا يقع فيه البعض ويؤدي لخلافات كثيرة.

وبالرغم من أن يعقوب عانى كثيراً من هذا الخطأ في الماضي.. لأن أباه إسحاق كان يميل إلى عيسو.. وأمه رفقة كانت تميل له.. مما جعلها تتحايل على إسحاق لتأخذ البركة ليعقوب مما أدى إلى هروبه سنوات طويلة، إلا أنه لم يستفد من هذه التجربة.. وميّر ابنه يوسف وأحضر له قميصاً ملوناً.. مُعلنًا أنه أعظم من إخوته.. فأبغضوه كرد فعل بشري لهذا التمييز وعدم المساواة.

حلم يوسف يشعل غيرة إخوته

"وَحَلَّمَ يُوسُفُ حُلْمًا وَأَخْبَرَ إِخْوَتَهُ فَازْدَادُوا أَيْضًا بُغْضًا لَهُ. فَقَالَ لَهُمْ: "اسْمَعُوا هَذَا الْحَلْمَ الَّذِي حَلَمْتُ. فَهَا نَحْنُ حَازِمُونَ حَزْمًا فِي الْحَقْلِ وَإِذَا حَزَمْتِي قَامَتْ وَانْتَصَبَتْ فَاحْتَاطَتْ حَزْمَكُمْ وَسَجَدَتْ لِحَزْمَتِي". فَقَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ: "أَلَعَلَّكَ تَمَلِكُ عَلَيْنَا مُلْكًا أَمْ تَسْأَطُ عَلَيْنَا تَسْأَطًا؟" وَازْدَادُوا أَيْضًا بُغْضًا لَهُ مِنْ أَجْلِ أَحْلَامِهِ وَمِنْ أَجْلِ كَلَامِهِ." (تك ٣٧ : ٥ - ٨)

لم يكن الإخوة في حاجة إلى مَنْ يضع المزيد من الحطب على الجمر المشتعلة في داخلهم، ولكن يوسف فعلها عندما قصَّ عليهم ذلك الحلم الذي لا يحتاج تفسيراً!!

ربما فعلها يوسف بسذاجة مراهق صغير.

وربما شعر بشيء من اللذة الخاطئة وهو يتخيل نفسه سيداً عليهم فأراد أن يغيظهم بسرد الحلم أمامهم ويستمتع برؤية ردود أفعالهم تجاه أحلامه.

يعقوب يحاول تهدئة أبنائه بعد الحلم الثاني

"ثُمَّ حَلَّمَ أَيضاً حُلْمًا آخَرَ وَقَصَّهُ عَلَى إِخْوَتِهِ. فَقَالَ: "إِنِّي قَدْ حَلَمْتُ حُلْمًا أَيضاً وَإِذَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَأَحَدٌ عَشَرَ كَوْكَبًا سَاجِدَةً لِي". وَقَصَّهُ عَلَى أَبِيهِ وَعَلَى إِخْوَتِهِ، فَانْتَهَرَهُ أَبُوهُ وَقَالَ لَهُ: "مَا هَذَا الْحُلْمُ الَّذِي حَلَمْتَ! هَلْ نَأْتِي أَنَا وَأُمَّكَ وَإِخْوَتُكَ لِنَسْجُدَ لَكَ إِلَى الْأَرْضِ؟". فَحَسَدَهُ إِخْوَتُهُ وَأَمَّا أَبُوهُ فَحَفِظَ الْأَمْرَ." (تك ٣٧: ١ - ١١)

وهذه المرة أيضاً عاد ليحكى الحلم أمام إخوته وأبيه، ولكن الأب شعر بنظرات إخوته ورأى كم الحسد والغيرة الذى يتطاير كالشرر من عيونهم، فحاول أن يتدارك الموقف بأن ينتهر يوسف أمامهم مشيراً إلى استحالة أن يسجدوا أمامه وهو أصغرهم.

وإن كان هذا الحلم فى الحقيقة قد أثلج صدر يعقوب، فهو فى داخله يتمنى حدوث هذا.. بل ويتعجله، فهذا الابن المميز لديه يستحق ذلك. كما أنه شعر أن هذا الحلم ليس مجرد تخاريف ليلة صيف بل هو رسالة إلهية مؤكدة.

أما بالنسبة للإخوة فكان الحلم سهماً آخر يخترق قلوبهم ويثير مزيداً من الحسد، والحسد هو نوع من الغيرة المرّة يحرق قلب الحاسد - وليس المحسود - وهو غير المفهوم السائد عن "العين والحسد" التى تؤذى المحسود وهو ما لا نؤمن به.

وعلى كل حال فقد دفع يوسف ثمناً غالياً حتى يتعلم ذلك الدرس، وهو أنه ليس كل الكلام يصح أن يُقال، فلا بد أن يُحسب تأثير الكلمة على سامعها، وكيف سيفهمها؟ وهل من فائدة تعود عليه من سماعها، أم أن ضررها سيكون أكثر من فائدتها؟

ورغم أن هذه الأحلام قد تحققت فيما بعد، إلا أن الثمن كان باهظاً.

يعقوب يرسل يوسف ليقتد إخوته

"وَمَضَى إِخْوَتَهُ لِيَرْعُوا عَنَّمْ أَبِيهِمْ عِنْدَ شَكِيمٍ. - فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: "أَلَيْسَ إِخْوَتُكَ يَرْعُونَ عِنْدَ شَكِيمٍ؟ تَعَالَ فَأَرْسَلِكَ إِلَيْهِمْ". فَقَالَ لَهُ: "هَأَنْذَا". فَقَالَ لَهُ: "أَذْهَبِ انظُرْ سَلَامَةَ إِخْوَتِكَ وَسَلَامَةَ الْغَنَمِ وَرَدِّ لِي خَبْرًا". فَأَرْسَلَهُ مِنْ وَطَاءِ (وادي) حَبْرُونَ فَأَتَى إِلَى شَكِيمٍ. فَوَجَدَهُ رَجُلٌ وَإِذَا هُوَ ضَالٌّ فِي الْحَقْلِ. فَسَأَلَهُ الرَّجُلُ: "مَاذَا تَطْلُبُ؟". فَقَالَ: "أَنَا طَالِبٌ إِخْوَتِي. أَخْبِرْنِي أَيْنَ يَرْعُونَ". فَقَالَ الرَّجُلُ: "أَنَا لَمْ أَتْلُبْ مِنْ هُنَا لِأَنِّي سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ لِنَذْهَبَ إِلَى دُوثَانَ" (تك ٣٧ : ١٢-١٧)

ذهب الإخوة العشرة ليرعوا الغنم في منطقة شكيم التي تبعد عن حبرون حوالي ٥٠ كم شمالاً، وبقي يوسف وبنيامين مع يعقوب أبيهما.

ولعل يعقوب فكر أن إرسال يوسف لإخوته ليسأل عنهم ويفتقدهم قد يخفف من الغيرة المشتعلة في قلوبهم ويساهم جدياً في إعادة روح المحبة المفقودة.. فهو لا يريد لابنه المحبوب أن يشرب من كأس البغضة المرة التي شربها في علاقته مع عيسو توأمه.

أمّا يوسف، فكانت هذه أيضاً فرصة له أن يثبت للجميع أنه لم يعد ذلك الطفل المدلل في حضن أبيه، بل هو رجل مثلهم ويمكن الإعتماد عليه في أول مهمة يذهب لها بعيداً عن منزله. حتى وإن لم يجدهم في شكيم يكمل رحلته شمالاً إلى دوثان على بعد ٢٠ كم أخرى، حتى لا يفشل في مهمته. وهذا يبرز لنا ثلاثاً من أجمل صفات يوسف:

١- مطيع لأبيه.. فلم يرفض طلبه، أو يطلب إرسال أحد الخدم أو العبيد بدلاً منه في رحلة تستغرق يومين أو ثلاثة في طريق مجهد لا يخلو من الخطورة.

٢- يتسم بالأمانة الشديدة.. فعندما لم يجد إخوته في شكيم أصر أن يبحث عنهم ويفتقدهم حتى وجدهم في دوثان، لم يهرب من المهمة التي كلفه بها أبوه، بل أتمها بكل أمانة إلى المنتهى، ولم يفعل مثل كثيرين يتهربون من مسئولية الخدمة أو العمل، متعللين بأعذار لتخدير الضمير.

٣- صاحب قلب نقي.. رغم علمه أن إخوته يحسدونه ولا يحبونه ومع ذلك فهو لا يكرههم وإنما يذهب لآخر المشوار ليسأل عن سلامتهم.

ولعل يوسف تردد قليلاً وهو يرتدى ملابسه، هل يلبس الثوب الملوّن الذى قد يستنقز إخوته؟ أم يترك هدية والده التى اختصه بها بما قد يُعتبر إهانة للأب المحب.

وأخيراً حسم الأمر ووضع الثوب على كتفيه.. وليته ما فعل!

فقد يكون ما يميزنا مثل المال أو السلطة أو النجاح أو المال هو سبب مشاكلنا!

وقد يكون التواضع والتخلي عن تلك المزايا هو المفتاح الذى ندخل به قلوب الآخرين، فنشابه ذلك الذى "أخلى نفسه، أخذاً صورة عبدي، صائراً في شبه الناس. وإذ وجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب." (في ٢ : ٧ - ٨)

فالتواضع يحرص بحكمته وبساطته على مشاعر الآخرين لئلا يعثرهم بالغيرة والحسد، ويجنبهم ويجنب نفسه الكثير من المشاكل.

إلقاء يوسف في البئر

"فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان. فلما أبصروه من بعيد قبلما اقترب إليهم احتالوا له ليُميئوه. فقال بعضهم لبعض: "هوذا هذا صاحب الأحلام قادم. فالآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى الآبار ونقول: وحش رديء أكله. فنرى ماذا تكون أحلامه". فسمع رأوبين وأنقده من أيديهم وقال: "لا نقتله". وقال لهم رأوبين: "لا تسفكوا دماً. اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمذوا إليه يداً" لكي ينقده من أيديهم ليرده إلى أبيه. فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عنه قميصه الملوّن الذي عليه. وأخذوه وطرحوه في البئر. وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء." (تك ٣٧ : ١٧ - ٢٤)

أرسل يعقوب ابنه الحبيب يوسف ليفتقد إخوته.. تماماً مثلما أرسل الآب السماوى ابنه الوحيد الحبيب ليفتقد إخوته (البشر)، ولكن إخوة يوسف تأمروا عليه ليقتلوه.. مثلما تأمر البشر على الرب يسوع وقتلوه. وهو ما يذكرنا بمثل الكرامين الأردباء حيث أرسل صاحب الكرم عبداً ليأخذوا الثمار ولكنهم أهانوهم واحداً تلو الآخر.

وأخيراً.. أرسل ابنه الوحيد فقتله الكرامون الأردباء (مت ٢١ : ٣٣ - ٤٦)، (مر ١٢ : ١ - ٩)، (لو ١٩ : ٩ - ١٩).

لقد تأمر إخوة يوسف عليه ليقتلوه.. ولكن بتدبير من الله تحنن قلب رأوبين الأخ الأكبر - إشفافاً على الفتى الصغير وإيضاً إشفافاً على يعقوب أبيه الذى لا يحب فى الدنيا أحداً مثل يوسف ابن راحيل المحبوبة - فاقترح أن يلقوه فى بئر فارغة ناوياً أن يخرجهم فيما بعد ويعيده إلى أبيه، بعد أن تهدأ ثورة إخوته.

ولمّا جاء يوسف.. خلعوا عنه قميصه الملون - سبب المشاكل - وألقوه فى البئر.

ولا شك أن يوسف شعر أن ما يحدث هو كابوس مريع وليس حقيقة..

هل هؤلاء هم إخوته الكبار؟!.. كيف تنتقى قلوبهم هكذا؟!.. ولماذا؟!.. من أجل ثوب ملون؟!.. أم من أجل حلم أتاه فى المنام؟!..

يوسف يباع عبداً

"ثُمَّ جَسُوا لِيَأْكُلُوا طَعَامًا. فَرَفَعُوا عُيُونَهُمْ وَنَظَرُوا وَإِذَا قَائِلَةٌ إِسْمَاعِيلِيِّينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جَلْعَادَ وَجَمَالَهُمْ حَامِلَةٌ كَثِيرَاءَ (توابل) وَبِلْسَانًا وَلَاذْنًا (أعشاب ونباتات طبية) ذَاهِبِينَ لِيُنزِلُوا بِهَا إِلَى مِصْرَ. فَقَالَ يَهُودًا لِإِخْوَتِهِ: "مَا الْقَائِدَةُ أَنْ تَقْتُلَ أَخَانَا وَتُخْفِيَ دَمَهُ؟ تَعَالُوا فَنَبِيعَهُ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ وَلَا تَكُنْ أَيْدِينَا عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَخُونَا وَلَحْمُنَا". فَسَمِعَ لَهُ إِخْوَتِهِ. وَاجْتَازَ رَجَالٌ مَدْيَانِيُّونَ تِجَارًا فَسَحَبُوا يُوسُفَ وَأَصْعَدُوهُ مِنَ الْبَيْرِ وَبَاعُوا يُوسُفَ لِلْإِسْمَاعِيلِيِّينَ بِعِشْرِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. فَأَتُوا يُّوسُفَ إِلَى مِصْرَ." (تك ٣٧ : ٢٥ - ٢٨)

بعد أن طرحوا يوسف فى البئر جلس الإخوة لياكلوا! ولا أدرى أى قلوب تلك التى يطيب لها طعام وأخوهم الصغير فى البئر يسترحمهم ويستعطفهم بلا جدوى!!

ورأوا قافلة من الإسماعيليين (أحفاد إسماعيل بن إبراهيم وهاجر) تحمل توابل وأعشاب طبية يأتون بها من بلاد العرب مروراً بفلسطين ثم يتجهون إلى مصر ليبيعوها هناك، وكانت مصر فى ذلك الوقت أكثر البلاد تحضراً.

ونفهم من باقى القصة (تك ٤٢: ٢١ - ٢٢) أن رؤوبين أوصاهم ألا يؤذوا يوسف، ولعل رؤوبين كان قد ابتعد عن إخوته فى ذلك الوقت لسبب ما، وتحرك قلب يهوذا تجاه يوسف كى ينقذه من الموت وفى نفس الوقت يمنعه من العودة إلى أبيه نهائياً.

فاقتراح أن يُبيعوا يوسف لقافلة الإسماعيليين.

ورغم أن يهوذا هو رابع أبناء يعقوب بعد رؤوبين وشمعون ولاوى إلا أنه أعتبر البكر حسب نبوة يعقوب لأولاده (تك ٤٩: ٨ - ١٢).. بعدما زنى رؤوبين البكر الأسمى مع بلهة زوجة أبيه (تك ٣٥: ٢٢).. لذلك أصبح يهوذا هو البكر فى نظر تاريخ البشرية وأصبح حسب الجسد جداً للسيد المسيح له المجد.

ولعل يوسف قد تنفس الصعداء عندما وجد إخوته يخرجونه من البئر ظناً منه أنهم قد عادوا إلى صوابهم وأنهم بصدد إنهاء هذا الهزل السخيف.

ولكن أحلام الفتى الصغير تبددت عندما وجدهم يساومون المديانيين على السعر، وبيعونه بهذا المبلغ الزهيد، وبيعونه كعبد بعدما كان السيد المطاع فى بيت أبيه! وارتضى إخوته أن يروا السلاسل الحديدية تقيد قدميه وهو يساق كالدواب "بيع يوسف عبداً. آذوا بالقيد رجليه. فى الحديد دخلت نفسه" (مز ١٠٥: ١٧ - ١٨).

عشرة أبناء يندعون أباهم

"وَرَجَعَ رَأُوبِينُ إِلَى الْبَيْتِ وَإِذَا يُوسُفُ لَيْسَ فِي الْبَيْتِ فَمَزَّقَ ثِيَابَهُ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَى إِخْوَتِهِ وَقَالَ: "الْوَالِدُ لَيْسَ مَوْجُودًا وَأَنَا إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ؟". فَأَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ وَدَبَّحُوا تَيْسًا مِنْ الْمَعَزَى وَعَمَسُوا الْقَمِيصَ فِي الدَّمِ. وَأَرْسَلُوا الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ وَأَحْضَرُوهُ إِلَى أَبِيهِمْ وَقَالُوا: "وَجَدْنَا هَذَا. حَقَّقْ أَقْمِيصُ ابْنِكَ هُوَ أَمْ لَا؟". فَتَحَقَّقَهُ وَقَالَ: "قَمِيصُ ابْنِي. وَحَسُّ رَدِيءٌ أَكَلَهُ! افْتَرَسَ يُوسُفُ افْتِرَاسًا!". فَمَزَّقَ يَعْقُوبُ ثِيَابَهُ وَوَضَعَ مِسْحًا عَلَى حَقْوِيهِ وَنَاحَ عَلَى ابْنِهِ أَيَّامًا كَثِيرَةً." (تك ٣٧: ٢٩ - ٣٤)

رجع رأوبين للبئر ليُخرج يوسف.. ولكنه لم يجده.. وكان رأوبين يحب أباه جداً ولذلك فقد مزَّق ثيابه.. وهو يصرخ حائراً "إلى أين أذهب؟".

ولكن باقى الإخوة لم يكونوا مثل رأوبين.. ولأن الشر يلد شراً.. فقد اخترع إخوته قصة تلويث القميص بدم التيس، وتركوا أباهم يستنتج أن وحشاً قد افترس يوسف.. وبهذا لا يطالبهم بالبحث عنه كما كان يُحتمل لو لم يروه القميص المخضب بالدماء.

ونلاحظ أن إخوة يوسف كانوا من ذلك النوع الذى لا يتورع عن ارتكاب الجريمة.. ولكنه فى نفس الوقت يجعل لنفسه حجة يستطيع بها الدفاع عن نفسه، فعندما رأوا يوسف قرروا أن يقتلوه، ولكن لكى لا تلتوث أيديهم بدمائه فضلوا أن يتركوه فى البئر يهلك جوعاً وعطشاً حتى يحافظوا على طهارة أيديهم.

والآن لا يقولون لأبيهم أن أخاهم قد افترسه وحش لئلا يكونوا قد كذبوا بألسنتهم.. ولكن أباهم هو الذى استنتج ذلك بنفسه.. أما هم فأبرياء، ولكن البريء حقاً كان "الذئب" ومن هنا نشأ المثل الشهير: "إن فلاناً بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب."

ومثل هذه الأعداء قد تتجح بالفعل فى تبرئة مذنب أمام القاضى البشرى، ولكن عندما نقف أمام الديان العادل فاحص القلوب والكلى فإن التمكك بتلك التبريرات لا يجدي.

ولعل المتابع للقصة يلاحظ أوجه الشبه العديدة بين حياة يوسف وحياة السيد المسيح:

- فاللقاء يوسف في بئر جافة هو إشارة لموت ربنا يسوع له المجد ودخوله القبر.
- وخروج يوسف حياً من البئر الذي ليس فيه ماء (حياة) هو إشارة لقيامة المسيح له المجد من القبر حياً قائماً من بين الأموات.
- بيع يوسف إلى الإسماعيليين (الأمم) هو إشارة أن قبول الإيمان عند الأمم أسهل من قبوله عند اليهود "إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله". (يو ١ : ١١).
- بيع يوسف كعبد وبثمن رخيص وهو الابن المحبوب لأبيه، كذلك السيد المسيح بيع كعبد وبثمن رخيص وهو الابن المحبوب من الأب.
- الدم على قميص يوسف يدل على موته مع أنه حي، مثل السيد المسيح القائم من الأموات وعلامات جراحات الصليب عليه "حمل قائم كأنه مذبح" (رو ٥ : ٦).

وصدق يعقوب القصة.. وحزن على ابنه حزناً شديداً.. وكان ينوح عليه كل يوم، أما أبنائه - قساة القلوب - فتركوا الحزن ينهش قلبه.. ولكن هذا العمل الشرير لم يمح من ذاكرتهم ولم ينس الإخوة ما فعلوه بأخيهم وندموا على فعلتهم. وسيظهر هذا في نهاية القصة عندما يقولون "حقاً إننا مذنبون إلى أخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة" (تك ٤٢ : ٢١).

ورغم بشاعة الجريمة فقد سمح الله بها لأنه كان يرتب لما هو أعظم ليوسف.. وفي نفس الوقت يريد أن يطهر قلوبهم القاسي.

أحياناً نجد أن قساوة القلب لا يقهرها ولا يصلحها إلا دموع الحزن. كانوا يرون يعقوب يبكي بمرارة ويحترق من داخله ولا يستطيعون أن يخبروه بالحقيقة.. وبأنهم هم السبب في حزنه.. وأن ابنه مازال حياً.. فهو لن يقبلهم إن عرف الحقيقة.. ولكن خطيتهم أمام أعينهم بإستمرار.

الشيطان يخدعنا بفكرة أن الخطية سهلة، فقد نُخطئ في لحظة لكنك قد تتمرر بالخطية وتُمرر من حولك لسنين طويلة.

"فَقَامَ جَمِيعُ بَنِيهِ وَجَمِيعُ بَنَاتِهِ لِيُعَزُّوهُ. فَأَبَى أَنْ يَتَّعِزَّيَ وَقَالَ: "إِنِّي أَنزَلُ إِلَى ابْنِي نَائِحًا إِلَى الْهَآوِيَةِ". وَبَكَى عَلَيْهِ أَبُوهُ. وَأَمَّا الْمِدْيَانِيُّونَ فَبَاعُوهُ فِي مِصْرَ لِفُوطِيفَارَ حَصِيٍّ فِرْعَوْنَ رَئِيسَ الشَّرْطِ." (تك ٣٧ : ٣٥ - ٣٦)

عندما حُرِّم يوسف من راحيل المحبوبة التي عمل من أجلها ١٤ سنة تعزى عنها بابنه المحبوب يوسف.. ولكنه عندما حُرِّم من يوسف فقد أبى أن يتعزى وأيقن أنه سيمضى بقية أيام غربته على الأرض باكيًا نائحًا على ابنه المحبوب.

وفى مصر باعت القافلة يوسف لفوطيفار رئيس الشرطة.. ويُعتقد أنه كان مكلفًا بحماية فرعون نفسه.. وأن السجن الذى يشرف عليه يدخله من يرتكب جريمة سياسية.

لماذا سمح الله ليعقوب بهذه الشدة؟

- لم يكن يعقوب فى بداية حياته إنساناً روحياً.. بل كان انتهازياً وكذاباً.
- استغل جوع أخيه عيسو ليشتري منه البكورية بطبق عدس! (تك ٢٥ : ٣١).
- وكذب على أبيه اسحق مستغلاً ضعف نظره ليسرق البركة (تك ٢٧ : ٢٤).
- وخدع خاله لابان فى اختيار الغنم المنقطة ليستولى على أكبر كمية من الغنم (تك ٣٠ : ٣١).

ورغم أن الأيام والسنين جعلت يعقوب يقترب جداً من الله ويصبح إنساناً روحياً.. إلا أن الله أحياناً يسمح أن نشرب من نفس الكأس الذى سقيناه لغيرنا، فالذى يزرعه الإنسان إياه يحصد.. أيضاً وكما كذب هو على أبيه تأمر عشرة من أبنائه ليكذبوا عليه.

ومن العجيب أن كثيرين يستهينون بخطية الكذب.. على الرغم من أنها خطية يقول عنها الكتاب "تَهْلِكُ الْمُتَكَلِّمِينَ بِالْكَذِبِ. رَجُلُ الدَّمَاءِ وَالْغِشِّ يَكْرَهُهُ الرَّبُّ" (مزه : ٦).

وإذا كانت التوبة تمحو العقوبة الأبدية إلا أن الله يسمح أحياناً بعقوبة أرضية حتى لا نستهين بالخطية فنكررها مراراً وتكراراً بدعوى أننا سوف نتوب عنها.

يظهر هذا جلياً في حياة داود النبي الذي أعلن خطأه وندمه على خطية الزنا فقال له الرب على لسان ناثان النبي "الرَّبُّ أَيْضًا قَدْ نَقَلَ عَنْكَ خَطِيئَتَكَ. لَا تَمُوتُ." (٢صم ١٢ : ١٤) أى لن تهلك هلاكاً أبدياً ولكن هذا لن يمنع العقوبات الأرضية - وهى كثيرة - لأن خطيتك كانت كبيرة، وجعلت أعداء الرب (الشياطين) يشمتون، لذا فلن يفارق السيف بيتك، والابن المولود لك سوف يموت.

يوسف في بيت فوطيفار

يوسف عبداً في بيت فوطيفار

"وَأَمَّا يُوسُفُ فَأُنزِلَ إِلَى مِصْرَ وَاشْتَرَاهُ فُوطِيفَارُ حَصِيٌّ فِرْعَوْنَ رَئِيسُ الشَّرْطِ رَجُلٌ مِصْرِيٌّ مِنْ يَدِ الْإِسْمَاعِيلِيِّينَ الَّذِينَ أَنْزَلُوهُ إِلَى هُنَاكَ. وَكَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ فَكَانَ رَجُلًا نَاجِحًا. وَكَانَ فِي بَيْتِ سَيِّدِهِ الْمِصْرِيِّ. وَرَأَى سَيِّدُهُ أَنَّ الرَّبَّ مَعَهُ وَأَنَّ كُلَّ مَا يَصْنَعُ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ بِيَدِهِ. فَوَجَدَ يُوسُفَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ وَخَدَمَهُ فَوَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَدَفَعَ إِلَى يَدِهِ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. وَكَانَ مِنْ حِينَ وَكَّلَهُ عَلَى بَيْتِهِ وَعَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ أَنَّ الرَّبَّ بَارَكَ بَيْتَ الْمِصْرِيِّ بِسَبَبِ يُوسُفَ. وَكَانَتْ بَرَكَاتُ الرَّبِّ عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ فِي الْبَيْتِ وَفِي الْحَقْلِ. فَتَرَكَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ. وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ يَعْرِفُ شَيْئًا إِلَّا الْخُبْزَ الَّذِي يَأْكُلُ. وَكَانَ يُوسُفُ حَسَنَ الصُّورَةِ وَحَسَنَ الْمُنْظَرِ." (تك ٣٩ : ١-٦)

بيع يوسف إلى الإسماعيليين، الذين باعوه كعبد لفوطيفار، ولكن كلمة السر كانت..

"كَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ فَكَانَ رَجُلًا نَاجِحًا" (تك ٣٩ : ٢)

فإن أي إنسان في موقف يوسف كان من المتوقع أن يُعاتب الله قائلاً: "أين أنت يا رب؟! لماذا يحدث هذا؟! ما الخطأ الذي فعلته لتذلني هكذا؟! أنا أحب أختي، ولم أكن أقصد أن أضايقهم.. ليس لي ذنب فيما حدث.. لقد ذهبت إلى إختي طاعة لأبي.. أنا فقط قصصت لهم حلمي الذي حلمت به فعلاً.. هل سأرى أبي مرة أخرى؟! كيف سيتحمل أبي غيابي؟!.. ماذا سيقولون له عنى؟!.. هؤلاء الغرباء ماذا سيفعلون بي؟!.."

ولكن يوسف لم يشك أبداً في وجود الله معه بالرغم من كل الصعاب، وظل واثقاً أن الله هو الذي يمسك كافة الخيوط بيده.

وبذلك أراد الله أن يعلمنا أن النجاح مرتبط جداً بحضوره في حياتنا، وقبول أى ظروف قاسية يسمح لنا الله بها.. فيمكن أن يكون النجاح لاحقاً للظروف القاسية.. فكلمة النجاح هى كلمة نسبية.. فقط اجعل الله معك فى كل شيء.

ولكن فى أى شيء كنت ناجحاً يا يوسف؟!.. ناجحاً كعبد؟!.. وهل هذا هو النجاح؟!.. هل النجاح هو أن تصبح خادماً وعبداً جيداً؟!

لم يقف الأمر عند إحساس يوسف وحده بأن الله معه، بل أصبح كل من حوله يشعرون بهذا أيضاً.. يشعرون أن هناك بركة خاصة على يديه.. حتى فوطيفار الذى لا يعرف الله شعر أن هذا العبد لا بد أن يكون وراء نجاحه إله عظيم.

كان يوسف ينجح فى كل ما يصنع ويبارك الله فيه.

لا نعرف إن كان يوسف قد كلم من حوله كثيراً عن إلهه أم لا؟

ولكن سواء تكلم أو صمت فإن نجاحه كان خير شهادة لإلهه.

وبذلك كان يوسف هو ذلك الشاب البسيط الذى يشهد الله بسلوكه وأمانته بالرغم من قسوة الأيام.. ولذا وجد نعمة فى عينى فوطيفار وفى أعين زملائه الخدم.. فكان محبوباً من الجميع.. وكانوا يشعرون أن هناك بركة خاصة ونعمة خاصة لديه.

ولذلك ترك فوطيفار كل ما فى البيت فى يد يوسف. وبارك الله فى بيت المصرى بسبب يوسف.. وهو ما يذكرنا بالبركة التى وعد الله بها إبراهيم الجد الأكبر ليوسف حين قال له "وَأَبَارِكُ مُبَارِكِيكَ وَلَا عَيْتَكَ الْعَيْتُ. وَتَتَبَارِكُ فِيكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ" (تك ١٢ : ٣).. كانت هناك بركة فى كل شيء يمد يوسف يده إليه.. حتى أن فوطيفار لم يكن يعلم عن البيت إلا ما يأكله لأن كل شيء كان فى يد يوسف.

يوسف يرفض الإغراء

"وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ امْرَأَةً سَيِّدِهِ رَفَعَتْ عَيْنَيْهَا إِلَى يُوسُفَ وَقَالَتْ: "اضْطَجِعْ مَعِي". فَأَبَى وَقَالَ لَامْرَأَةَ سَيِّدِهِ: "هُوَذَا سَيِّدِي لَا يَعْرِفُ مَعِيَ مَا فِي الْبَيْتِ وَكُلُّ مَا لَهُ قَدْ دَفَعَهُ إِلَى يَدِي. لَيْسَ هُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَعْظَمَ مِنِّي. وَلَمْ يُمَسِّكْ عَنِّي شَيْئًا غَيْرِكَ لِأَنَّكَ امْرَأَتُهُ. فَكَيْفَ أَصْنَعُ هَذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأَخْطِي إِلَى اللَّهِ؟ وَكَانَ إِذْ كَلَّمَتْ يُوسُفَ يَوْمًا فَيَوْمًا أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَجِعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ مَعَهَا." (تك ٣٩ : ٧ - ١٠)

بدأت ظروف يوسف تتحسن.. وبدأ ينجح في بيت فوطيفار بعد مرارة شديدة.. ولكن حدث أمر غير متوقع وكأنه اختبار جديد لإيمان يوسف.

دخل يوسف في تجربة قاسية حينما طلبت امرأة فوطيفار منه أن يصنع معها الشر.. ولكن يوسف رفض بشدة، فبدأ يكلمها من المنطلق التي تفهمه، وهو أنه يرفض أن يخون فوطيفار سيده الذي يأتئنه على كل ما في البيت، حتى المال.. وأنه أعطاه أعظم مكانة في بيته.. فكيف يخونه بعد أن وثق فيه كل هذه الثقة؟

أما امرأة فوطيفار فنظرت له بمنتهى الإستخفاف غير مقتنعة بما يقول.. والزوجة التي تطلب الشر بهذه الصراحة والوقاحة مراراً وتكراراً، لا نستبعد مطلقاً أن تكون قد إنزلقت إلى الخيانة كثيراً مع عبيد وخدم آخرين قبل يوسف ولم تجد منهم سوى كل ترحيب.. أمّا هذا الشاب العبراني العنيد فهو يهين أنوثتها ولا يجدى معه ترغيب ولا تهديد.

وأصبح يوسف يتحاشى التواجد معها بقدر الإمكان، ولكن سيدهته هي الأمرة النهائية وتعرف كيف تستدرجه في الزمان والمكان المناسبين وهو لا يملك إلا طاعة سيده وتنفيذ أوامرها لتبدأ معه جولة جديدة من الإغراء والوعيد فيتهرب منها ويأوى إلى مخدعه مصلياً إلى ربه أن ينجيه من تلك التجربة العصيبة، ويسترجع إلى ذاكرته ذلك اليوم الذي جلس فيه تحت قدمي إسحاق جده وسمع منه بالتفصيل كيف ارتفعت السكين فوق عنقه وكادت تهوى عليه

دون أن يفكر في معصية أبيه أو إلهه.. فهل يسمح لنفسه أن يكون أقل من جده إسحاق.

وفى نفس الوقت أيضاً فهو قد اختبر جيداً في صباه كيف تسببت تلك الخطية في هلاك شكيم وكل مدينته بعد أن وقع شكيم في حب دينة أخته وأخطأ معها، فأحتال شمعون ولاوى على شكيم وقومه وطلبوا منهم أن يختتنوا حتى يصابهروهم، ثم قاموا عليهم وقتلوهم كلهم بحد السيف جزاء خطية واحدة*.(تك ٣٤).

ومع تكرار إلحاح المرأة انتقل يوسف إلى الجانب الأهم في توبيخه لها وهو أن الخيانة ليست موجهة فقط ضد شخص زوجها بل بالأحرى ضد الله الذى يبغض الخيانة.. فقال لها "كَيْفَ أَصْنَعُ هَذَا الشَّرَّ الْعَظِيمَ وَأَخْطِئُ إِلَى اللَّهِ؟" (تك ٣٩ : ٩).. مما زاد من غيظها أكثر فأكثر، وكأنها تقول له: إن كنت لا أكثرث كثيراً بزوجي.. فمن هو الله هذا الذى تكلمنى عنه؟!.. أين هو؟!.. وإن كان حقاً موجوداً فكيف تركك عبداً ولم ينفذك؟!.. ثم أن هذا الإله قد يتواجد فى كنعان ولكن ليس فى مصر، فنحن لنا آلهتنا.

كانت التجربة قاسية.. خاصة أنها تتكرر يومياً بإلحاح.. ويستغلها الشيطان بوضع شكوك عديدة فى إيمان يوسف بالله.. وخاصة وهو بمفرده فى هذه التجربة.. وكان عمره حوالى ٢٠ سنة.. وكل ما يحيط به فى بيت فوطيفار هو الأوثان والتماثيل والإباحية والكلام الباطل من العبيد رفقائه.. وأيضاً كان يمكن أن يُسكِّت ضميره لأن الأمر صادر من امرأة سيده.. وظروف الخطية مهياة تماماً.. وأنه يجب أن يطيع الأوامر فهو عبد، ولكنه كان يدرك أن العبودية الحقيقية ليست لفوطيفار بل لخالق الكون كله، ففى تلك العبودية يشعر

* بجانب وقوع دينة فى تلك الخطيئة، نجد الوحي المقدس أيضاً يذكر أن اثنين آخرين من إخوة يوسف قد وقعا فى نفس الخطية دون وجود تلك الضغوط والإغراءات التى تعرض لها يوسف، فقد زنى رأوبين أكبر أبناء يعقوب مع سُرِّية (الزوجة الجارية) أبيه.. بلهة جارية راحيل.. عقب وفاة راحيل بقليل (تك ٣٥ : ٢٢). ثم زنى يهوذا الإبن الرابع مع تامار زوجة ابنه عير وأونان اللذين كانا قد توفيا (تك ٣٨ : ١٨) ولعل المقارنة بين عفة يوسف واستباحة أخوته يرينا كم كان يوسف نقياً طاهراً وسط جيل معوج. ويعتقد أن يوسف لم يعلم بهاتين الحادثتين.. أما قصة دينة فغالباً قد عرفها بكل تفاصيلها.

بمجد أولاد الله.. أما عبودية الخطية فهي تشعره بالذل والهوان.. ومن هنا كان قرار يوسف واضحاً.. إذا تعارضت أوامر السيد الأرضي مع وصايا السيد السماوي.. "يَبْغِي أَنْ يُطَاعَ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنَ النَّاسِ." (أع ٥ : ٢٩).

كانت علاقة عجيبة بين يوسف وامرأة سيده، فكل منهما يحب الآخر بطريقته!.. فهي تغرق أذنيه بكلام الحب المبتذل.. أمّا هو فكان يحبها محبة حقيقية، تلك المحبة التي تجعله يرى فيها مريضاً يحتاج العلاج والشفاء، ولكنه في نفس الوقت يكره مرضها ويحرص قبل كل شيء ألا تنتقل إليه العدوى الخطيرة.

وأصر يوسف أن يرفض كل الإغراءات ويتمسك بطاعته لله.

قصة يوسف تُجلب أي شاب يتخيل أن الطهارة والعفة أمور صعبة أو يعتقد أن انتشار الأنترنت هو سبب الإباحية.. وتخجل كل إنسان يتهاون في الخطأ ولا يقدر أن يقوم عينيه ولا أفكاره.. لأن يوسف عاش في زمان أصعب جداً من زماننا وفي ظروف أفسى من ظروف أي أحد منا وكان كل ما يسنده هو إيمانه الذي استلمه.

يوسف يهرب من الشر

"وَكَانَ إِذْ كَلَّمَتْ يَوْسُفَ يَوْماً فَيَوْماً أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ لَهَا أَنْ يَضْطَّعَ بِجَانِبِهَا لِيَكُونَ مَعَهَا. ثُمَّ حَدَّثَ نَحْوَ هَذَا الْوَقْتِ أَنَّهُ دَخَلَ الْبَيْتَ لِيَعْمَلَ عَمَلَهُ وَلَمْ يَكُنْ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ هُنَاكَ فِي الْبَيْتِ. فَأَمْسَكَتْهُ بِثَوْبِهِ قَائِلَةً: "اضْطَّعْ مَعِي". فَتَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ." (تك ٣٩ : ١٠ - ١٢)

إزاء رفض يوسف المتكرر للوقوع في الخطية انتقلت المرأة من التلميح إلى التوضيح وأخيراً إلى الفعل الصريح، فاستغلت وقتاً لم يكن فيه في البيت سواهما لتحاصره كما يحاصر الوحش فريسته، ولم تطلب منه الخطية بلسانها فقط بل أنشبت مخالبها في ثوبه وبفحيح الأفعى قالت له بجسارة "اضْطَّعْ مَعِي".

أما يوسف فقد تصرف خير تصرف يفعله إنسان في هذا الموقف، فقد ترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج وهو يعلم أن نهايته قد تكون في هروبه هذا.. جبار هذا الشاب فهو لم يعطها جواباً.. فحينما تشتد الحرب جداً لا يصلح أن تناقش الفكرة الشريرة ولكن.. "اهرب!!!".

ولعل يوسف في تلك اللحظة قد رنَّ في أذنيه صوت ذلك الملاك الذي حذر لوط قائلاً له "اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لَا تَنْظُرْ إِلَى وِرَائِكَ" (تك ١٩ : ١٧) ويا لها من لحظة لو تباطأ فيها لأهلكته النيران التي حرقت سدوم وعمورة.

كان من الممكن أن يسقط يوسف في الخطية.. وكنا سنلتمس له الأعذار.. ولكنه لم يحاول أن يتحجج بأعذار، كان من الممكن أن يلوم الله ويقول له "أنت الذى تركتني.. أنت الذى وضعتنى فى هذه الظروف.. أنا محروم من الحب والحنان.. أين أبى وأين إخوتى؟.. لو كنت فى كنعان ربما كنت تزوجت.. ماذا أفعل وأنا أعلم أن الأمر فيه خطورة على حياتى؟.. أنا صمدت فى رفضى للخطية ولكن الآن حكمت الظروف بهذا..". لكن يوسف العفيف هرب حتى النهاية.

ولعل قصيدة "هوذا الثوب" لقداسة المتنيح البابا شنودة الثالث قد عبر فيها بكلمات بليغة عن تلك الأفكار والصراعات التى عانى منها يوسف وقت التجربة فقال على لسان يوسف مخاطباً امرأة فوطيفار:

إن قلبى ليس فيه
الثوب بل لا أذعيه
لك أن تسترجعيه
وإن شئت اتركيه
أقسمت ألا تدخله
وكذا لن تملكه
وقد استودعني
هوذا قلبى أسأليه

أعهدنى مالا وعرضاً
بيته طولا وعرضاً
كيف أهوى فيه نقضاً
أخون العهد فرضاً
وبهذا الشر أرضى
طارحاً تقواى أرضاً
إن أخلاقك مرضى
وقد أخلعتني
إن قلبى ليس فيه

عن أبرام جدى
والابن المعد
من عهد لعهد
أصبحت عنوان مجدى
إن الشرير يردى
إن الجسم عبدى
لو أطعت الله وحدى
منقاداً لذا الشر الكريه
إن قلبى ليس فيه

هوذا الثوب خذيه
أنا لا أملك هذا
هو من مالك أنت
فانزعى الثوب إذا شئت
إنما قلبى لقد
أنا لا أملك قلبى
انه ملك لربى
عبثاً قريبك منه

زوجك الغائب قد
بل وقد ملكنى فى
أنه عهد وثيق
وإذا ما كنت خواناً
كيف أعصى الله ربي
ناسياً عقلى ودينى
فابعدى عنى دعينى
أى فخر لك فى ثوبى
هوذا الثوب خذيه

أه لو تدرين ما أعلم
قصة الطاعة والمذبح
طاعة غنى بها العالم
طاعة أورثتها قد
طاعة لله لا للشر
طاعة للروح لا للجسم
سأطيع الله حتى
كيف أعصى الله
هوذا الثوب خذيه

يوسف في السجن

السجن ثمناً للأمانة والعفة

"وَكَانَ لَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ فِي يَدِهَا وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ. أَنَّهُهَا نَادَتْ أَهْلَ بَيْتِهَا وَقَالَتْ: "انظروا! قَدْ جَاءَ إِلَيْنَا بَرَجُلٌ لِيُذَاعِبَنَا. دَخَلَ إِلَيَّ لِيَضْطَجَعَ مَعِيَ فَصَرَخْتُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ. وَكَانَ لَمَّا سَمِعَ أَنِّي رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ وَخَرَجَ إِلَى خَارِجٍ". فَوَضَعَتْ ثَوْبَهُ بِجَانِبِهَا حَتَّى جَاءَ سَيِّدُهُ إِلَى بَيْتِهِ. فَكَلَّمْتُهُ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ قَائِلَةً: "دَخَلَ إِلَيَّ الْعَبْدُ الْعِبْرَانِيُّ الَّذِي جِئْتُ بِهِ إِلَيْنَا لِيُذَاعِبَنِي. وَكَانَ لَمَّا رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ أَنَّهُ تَرَكَ ثَوْبَهُ بِجَانِبِي وَهَرَبَ إِلَى خَارِجٍ". فَكَانَ لَمَّا سَمِعَ سَيِّدُهُ كَلَامَ امْرَأَتِهِ الَّذِي كَلَّمْتُهُ بِهِ قَائِلَةً: "بِحَسَبِ هَذَا الْكَلَامِ صَنَعَ بِي عَبْدُكَ" أَنْ غَضِبَهُ حَمِي. فَأَخَذَ يُوسُفَ وَوَضَعَهُ فِي بَيْتِ السَّجْنِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ أُسْرَى الْمَلِكِ مَحْبُوسِينَ فِيهِ. وَكَانَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ السَّجْنِ." (تك ٣٩ : ١٣ - ٢٠)

تحتل ثياب يوسف دور البطل في قصته أكثر من مرة!.. فقد كان الثوب الملوّن هو أحد دوافع الغيرة، وهو الدليل الكاذب على افتراس الوحش له، وفي المرة الثانية تأخذ امرأة فوطيفار قميصه وتخلق عليه قصة كاذبة أيضاً.

يوسف.. كلما فضل الخير على الشر.. ظلّمه الناس، حينما أحب أباه وإخوته.. ظلّم، وحينما أحب سيده وكان أميناً في بيته.. ظلّم أيضاً وأعتبر إنساناً مستبيحاً ومستهتراً.

لم يدافع يوسف عن نفسه.. لم يسلك مثل آدم ويلصق التهمة بالمرأة - رغم أن هذه كانت الحقيقة - ففضل أن يُدان هو ولا يلوّث سمعتها.. فضل أن يكون كالسيد المسيح الذي "ظلمَ أمّا هو فتدلل ولم يفتح فاه كشاةٍ تُساقُ إلى الدَّبْحِ وَكَنَعَجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَارِيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ" (أش ٥٣ : ٧) حتى نتبرر نحن ويحمل هو عقاب خطايانا.

ماذا يمكن أن يقوله يوسف لله في السجن "هل تركتني يا رب؟.. أنا لم أتركك ولم أخطئ إليك فكيف تتركني أنت؟.. أين أنت يا رب؟.. وأين بركتك وسلامك؟"

ولكن يوسف لم يشك بل كان أميناً جداً ولكنه لم يتجاسر أن يقول لله "لقد تخليت عني"..

- بعض الناس تدفعهم التجارب إلى الإلتضاع والتذلل أمام الله.
- والبعض الآخر يتذمر ويتمرد وقد يخاصم الله بل وقد ينكر وجوده أصلاً!

يوسف ينجح كسجين بعدما فُح كعبد

"وَلَكِنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَ يُوسُفَ وَبَسَطَ إِلَيْهِ لُطْفًا وَجَعَلَ نِعْمَةً لَهُ فِي عَيْنِي رَئِيسِ بَيْتِ السَّجْنِ. فَدَفَعَ رَئِيسُ بَيْتِ السَّجْنِ إِلَى يَدِ يُوسُفَ جَمِيعَ الْأَسْرَى الَّذِينَ فِي بَيْتِ السَّجْنِ. وَكُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ هُنَاكَ كَانَ هُوَ الْعَامِلَ. وَلَمْ يَكُنْ رَئِيسُ بَيْتِ السَّجْنِ يَنْظُرُ شَيْئًا الْبَتَّةَ مِمَّا فِي يَدِهِ لِأَنَّ الرَّبَّ كَانَ مَعَهُ وَمَهُمَا صَنَعَ كَانَ الرَّبُّ يُنْجِحُهُ" (تك ٣٩ : ٢١ - ٢٣)

مفتاح قصة يوسف "كَانَ الرَّبُّ مَعَ يُوسُفَ" كلما دخل يوسف في تجربة قاسية.. نجد هذه الجملة تتكرر.. فكان معه في البئر.. وفي الصحراء.. وفي بيت فوطيفار ووسط العبيد.. والآن معه في السجن! وإن كان الله معه فمن عليه؟

كان هذا الشاب يعرف معنى الصلاة الدائمة ومعنى كلمة عمانوئيل "الله معنا".. وكأنه بايمانه الشديد يرى الله أمام عينيه دائماً لدرجة أنه يقول "كيف أخطئ إلى الله؟".

أعطاه الله نعمة أمام رئيس بيت السجن فكان ناجحاً في السجن مثلما كان ناجحاً في بيت فوطيفار.. أي ناجحاً كعبد وناجحاً كسجين.

وربما يكون الشيطان قد حاربه في هذه الظروف قائلاً له "ما هذا الحال الذي وصلت إليه؟! أهذه هي كل طموحاتك أن تكون سجيناً مهذباً وسط جماعة من المجرمين؟!"

وربما يكون قد ذكره بأحلامه القديمة ليقعه في اليأس ويظن أن الله تركه، لكن يوسف تمسك بالله الذي كان يراه أمام عينيه بالإيمان، فأصبح يوسف - بالرغم من كونه سجيناً - هو المشرف على المسجونين، وكان الرب يُنجز كل عمل تمتد إليه يده.

ساقى الملك والخباز في السجن

"وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَالْخَبَّازَ أَذْنَبَا إِلَى سَيِّدِهِمَا مَلِكِ مِصْرَ. فَسَخَطَ فِرْعَوْنُ عَلَى خَصِيَّتَيْهِ: رَئِيسِ السُّقَاةِ وَرَئِيسِ الْخَبَّازِينَ. فَوَضَعَهُمَا فِي حَبْسِ بَيْتِ رَئِيسِ الشَّرْطِ فِي بَيْتِ السِّجْنِ الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوسُفُ مَحْبُوساً فِيهِ. فَأَقَامَ رَئِيسُ الشَّرْطِ يُوسُفَ عِنْدَهُمَا فَخَدَمَهُمَا. وَكَانَا أَيَّاماً فِي الْحَبْسِ.

وَحَلَمَا كِلَاهُمَا حُلْمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ كُلُّ وَاحِدٍ حُلْمَهُ كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَغْيِيرِ حُلْمِهِ: سَاقِي مَلِكِ مِصْرَ وَخَبَّازُهُ الْمَحْبُوسَانِ فِي بَيْتِ السِّجْنِ. فَدَخَلَ يُوسُفُ إِلَيْهِمَا فِي الصَّبَاحِ وَنَظَرَهُمَا وَإِذَا هُمَا مُعْتَمَانِ. فَسَأَلَ خَصِيَّتِي فِرْعَوْنَ اللَّذَيْنِ مَعَهُ فِي حَبْسِ بَيْتِ سَيِّدِهِ: "لِمَاذَا وَجَّهَاكُمَا مُكَمَّدَانِ الْيَوْمَ؟". فَقَالَ لَهُ: "حَلَمْنَا حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعْبَرُهُ". فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ: "أَلَيْسَتْ لِلَّهِ التَّعَابِيرُ؟" (التفاسير) قِصَا عَلَيَّ" (تك ٤٠ : ١ - ٨)

لقد كان ساقى الملك والخباز بمثابة وزيرين، لأنهما لا بد أن يكونا محل ثقة الملك لئلا يستغلا مركزيهما لدس السم للملك كما كان يحدث كثيراً في تلك الأيام.

وعندما شك فيهما الملك وُضعا في الحبس الذي فيه يوسف. ونظراً لمركزيهما فقد كان يوسف يخدمهما طوال مدة الحبس.. فتكونت بينهما علاقة وطيدة وأحباة.

وتظهر علاقة الحب بين يوسف والساقى والخباز من خلال سؤال يوسف لهما عن سبب ضيقتهما.. وردهما عليه بأن كل منهما حلماً ولم يجد من يفسره.

وهنا تظهر صفة أخرى جميلة فى يوسف فهو رغم ضيقته يفكر أولاً فى راحة الآخرين، ولكن السبب الحقيقى كان هو قوة علاقته بالله "أَبُو الرَّأْفَةِ وَإِلَهُ كُلِّ تَعَزِيَةٍ، الَّذِي يُعَزِّيْنَا فِي كُلِّ ضَيْقَيْنَا، حَتَّى نَسْتَطِيعَ أَنْ نُعَزِّيَ الَّذِينَ هُمْ فِي كُلِّ ضَيْقَةٍ بِالتَّعَزِيَةِ الَّتِي نَتَعَزَّى بِهَا مِنَ اللَّهِ." (٢كو ١ : ٣ - ٤)

أجابهما يوسف أن تفسير الأحلام من الله.. وطلب أن يقصا عليه حلمهما لأنه يعرف ويؤمن أن الله معه وينجحه ويعطيه تفسير الحلم.

حلم الساقى والخباز

"فَقَصَّ رَئِيسُ السُّقَاةِ حُلْمَهُ عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: "كُنْتُ فِي حُلْمِي وَإِذَا كَرْمَةٌ أَمَامِي. وَفِي الْكَرْمَةِ ثَلَاثَةٌ قُضْبَانٍ. وَهِيَ إِذْ أَفْرَحَتْ طَلَعَ زَهْرُهَا وَأَنْضَجَتْ عَنَاقِيدَهَا عِنْبًا. وَكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي. فَأَخَذْتُ الْعِنْبَ وَعَصْرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ وَأَعْطَيْتُ الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ.

فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: "هَذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلَاثَةُ الْقُضْبَانُ هِيَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنَ رَأْسَكَ وَيَرُدُّكَ إِلَى مَقَامِكَ فَتُعْطِي كَأْسَ فِرْعَوْنَ فِي يَدِهِ كَالْعَادَةِ الْأُولَى حِينَ كُنْتَ سَاقِيَهُ.

وَإِنَّمَا إِذَا ذَكَرْتَنِي عِنْدَكَ حِينَمَا يَصِيرُ لَكَ خَيْرٌ تَصْنَعُ إِلَيَّ إِحْسَانًا وَتَذَكِّرُنِي لِفِرْعَوْنَ وَتُخْرِجُنِي مِنْ هَذَا الْبَيْتِ. لِأَنِّي قَدْ سَرَقْتُ مِنْ أَرْضِ الْعِبْرَانِيِّينَ. وَهُنَا أَيْضًا لَمْ أَفْعَلْ شَيْئًا حَتَّى وَضَعُونِي فِي السِّجْنِ.

فَلَمَّا رَأَى رَئِيسُ الْخُبَّازِينَ أَنَّهُ عَبَّرَ جَيِّدًا قَالَ لِيُوسُفَ: "كُنْتُ أَنَا أَيْضًا فِي حُلْمِي وَإِذَا ثَلَاثَةٌ سِلَالٍ بَيْضَاءَ عَلَى رَأْسِي. وَفِي السَّلِّ الْأَعْلَى مِنْ جَمِيعِ طَعَامِ فِرْعَوْنَ مِنْ صَنَعَةِ الْخُبَّازِ. وَالطُّيُورُ تَأْكُلُهُ مِنَ السَّلِّ عَن رَأْسِي."

فَأَجَابَ يُوسُفُ وَقَالَ: "هَذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلَاثَةُ السَّلَالُ هِيَ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ. فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنَ رَأْسَكَ وَعَلْفُكَ عَلَى خَشَبَةٍ وَتَأْكُلُ الطُّيُورُ لَحْمَكَ عَنكَ."

فَحَدَّثَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ يَوْمَ مِيلَادِ فِرْعَوْنَ أَنَّهُ صَنَعَ وَليمةً لَجَمِيعِ عبيدهِ وَرَفَعَ رَأْسَ رَئِيسِ السَّقَاةِ وَرَأْسَ رَئِيسِ الْخَبَازِينَ بَيْنَ عبيدهِ. وَرَدَّ رَئِيسَ السَّقَاةِ إِلَى سَفِيهِ. فَأَعْطَى الْكَاسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ. وَأَمَّا رَئِيسُ الْخَبَازِينَ فَعَلَّقَهُ كَمَا عَبَّرَ لَهُمَا يُوسُفُ. وَلَكِنْ لَمْ يَذْكَرْ رَئِيسُ السَّقَاةِ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ" (تك ٤٠ : ٩ - ٢٣)

فسر يوسف لرئيس السقاة ورئيس الخبازين حلميهما.. وبعد تفسير حلم رئيس السقاة طلب منه أن يذكره عند فرعون لكي يخرج من السجن.

ويرى البعض أن يوسف بهذا الطلب قد أخطأ بالإعتماد على ذراع بشرية لتخلصه من سجنه.. وظنه أن فرعون هو الوحيد القادر على أن يخلصه من السجن.

ولكن رئيس السقاة لم يذكر يوسف ونسيه لمدة سنتين.. لنلا يضع يوسف رجاءه في رئيس السقاة.. ولكي يصبح كل اتكاله على الله لكي يرحمه ويحميه ويسنده في غربته "الِإِحْتِمَاءُ بِالرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى إِنْسَانٍ. الْإِحْتِمَاءُ بِالرَّبِّ خَيْرٌ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى الرُّؤْسَاءِ." (مز ١١٨ : ٨ ، ٩).. وأيضاً لكي تظل عبارة "كان الرب مع يوسف" قائمة ولا يوجد غير الله معه.

ولكن من ناحية أخرى يرى البعض الآخر أن هذا الطلب لا يعنى بالضرورة أن يوسف لم يعتمد على الله، فمن الطبيعي أن يستخدم الله البشر لتحقيق إرادته فيرسل لنا الأشخاص المناسبين في الوقت المناسب، تماماً كما استخدم أستير مثلاً في موقعها المتميز كملكة حتى تنقذ شعبها من مؤامرة هامان، وكما استخدم هذا الساقى ولو بعد سنتين كاملتين.

ولذا فإن الفيصل ليس في اللجوء للبشر أم لا (كاللجوء إلى طبيب عند المرض أو محامى في تهمة أمام القضاء مثلاً.. إلخ) بل في الشعور الداخلى بالإعتماد على الله أم البشر. فقد لجأ مردخاي إلى أستير الملكة معتمداً على الله أولاً بعدما رأى أن الله قد وضعها في هذا المنصب حتى تنقذ شعبها وكان هذا التصرف سليماً تماماً.

ولكن ظل يوسف عفيف اللسان حتى في شكواه.. فهو لم يُدِنَ أحداً.. ولم يحاول أن يلوم إخوته.. بل اكتفى أن يقول أنه سُرِقَ من أرض العبرانيين..

ذاكراً المضمون دون التفاصيل التي تدين إخوته رغم أن مَنْ يسمعونه لا يعرفون إخوته.. ولكنه رغم ذلك كان حريصاً على عدم تشويه صورتهم!

وكذلك لم يُدين امرأة فوطيفار.. بل اكتفى أن يقول أنه لم يفعل شيئاً لكي يضعوه في السجن. ومن المعروف أن كل سجين يحكى لزملائه عن سبب حبسه، وحتى إن لم يكن مظلوماً فهو يبذل كل جهده كي يُظهر نفسه في صورة المظلوم فعلاً.. أمّا يوسف فالترزم الصمت التام تجاه هذا السؤال الذي سمعه مئات المرات.. "ما هي قضيتك؟".."وما هي تهمتك التي جعلت فوطيفار شخصياً يرميك هنا.. وإلى أجل غير مسمى؟".

ولعل هذه كانت أول مرة يشكو فيها يوسف لإنسان.. ولكنها كانت شكوى مختصرة جداً وعفيفة مهذبة إلى أقصى درجة.

ليتنا نتعلم هذا الدرس من يوسف.. ألا نكون كثيرى الشكوى.. وإن شكونا لا نُسئ لأحد في كلامنا حتى وإن كان قد أخطأ في حقنا فعلاً.

ومع مرور الوقت في السجن كان يوسف يتساءل في قلبه:

- كيف حال أبى هل هو حي.. أم مات بحسرتة؟
- وإخوتى هل يتذكرونى.. أم نسوا أو تناسوا جريمتهم؟.. هل ندموا أم ضمائرهم مستريحة؟
- كيف يعاملون بنيامين شقيقى.. هل أساءوا إليه هو الآخر؟
- وماذا عن فوطيفار الذى خدمته بكل طاقتى.. هل نسينى أيضاً؟
- وامرأة فوطيفار.. نسيتهى هى الأخرى.. أم مازالت تسعى لإيقاع آخرين؟.. أم تابت عن شرها؟
- وغير كل هؤلاء.. فأين رئيس السفاة الذى أحبنى وأحبيته؟.. الذى بشرته بأن فرعون سيرفع رأسه.. هل نسينى هو أيضاً؟
- ألم يعد أحد فى هذه الدنيا يتذكرنى؟.. ألا يشعر بى أحد أبداً؟
- أنا لم أرتكب خطأ فلماذا لا يتذكرنى أحد بل الكل نسونى؟

وهنا قد يقصد الله أن يعصرنا ببعض الضيقات الشديدة فيشعر الإنسان أن لا أحد يتذكره إلا الله.. فلا ننظر إلى غيره.. ولا نتكل إلا عليه.. ولا ننتظر أى حلول تأتي لنا من أحد آخر غيره.

من المؤكد أن يوسف استغرق وقتاً طويلاً إلى أن سلّم بأنه لا فائدة من الإتكال على رئيس السقاة.. فقد مضت سنتان كما سنرى ولم يطلب فرعون حتى إجراء تحقيقات مع يوسف.. فتأكد أن رئيس السقاة قد نسيه ورجع لرجائه الوحيد في الرب الذي لا ينسى أبناءه أبداً.

حلم فرعون

"وَحَدَّثَ مِنْ بَعْدِ سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى حُلْمًا، وَإِذَا هُوَ وَقَافٌ عِنْدَ النَّهْرِ. وَهُوَ سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَسَمِيئَةِ اللَّحْمِ فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ. فَوَقَفَتْ بَجَانِبِ الْبَقَرَاتِ الْأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ. فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةَ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِيئَةِ.

وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ. ثُمَّ نَامَ فَحَلَمَ ثَانِيَةً. وَهُوَ سَبْعُ سَنَابِلِ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ سَمِيئَةٍ وَحَسَنَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلِ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِئَةٍ وَرَاءَهَا. فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةَ السَّنَابِلُ السَّبْعَ السَّمِيئَةَ الْمُتَمَلِّنَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ وَإِذَا هُوَ حَلْمٌ.

وَكَانَ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ نَفْسَهُ انزَعَجَتْ فَأَرْسَلَ وَدَعَا جَمِيعَ سَحَرَةَ مِصْرَ وَجَمِيعَ حُكَمَايَهَا وَقَصَّ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ حُلْمَهُ. فَلَمْ يَكُنْ مِنْ يُعْبِرُهُ (يفسره) لِفِرْعَوْنَ.

ثُمَّ قَالَ رَجُلٌ السَّقَاةُ لِفِرْعَوْنَ: "أَنَا أَتَذَكَّرُ الْيَوْمَ خَطَايَايَ. فِرْعَوْنُ سَخَطَ عَلَى عَبْدِيهِ فَجَعَلَنِي فِي حَبْسِ بَيْتِ رَجُلٍ الشَّرْطِ أَنَا وَرَجُلٌ خَبَّازِينَ. فَحَلَمْنَا حُلْمًا فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَنَا وَهُوَ. حَلَمْنَا كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ تَعْبِيرِ حُلْمِهِ. وَكَانَ هُنَاكَ مَعَنَا غُلَامٌ عَبْرَانِيٌّ عَبْدٌ لِرَجُلٍ الشَّرْطِ فَقَصَصْنَا عَلَيْهِ فَعَبَّرَ لَنَا حُلْمَيْنَا. عَبَّرَ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ حُلْمِهِ. وَكَمَا عَبَّرَ لَنَا هَكَذَا حَدَّثَ. رَدَّنِي أَنَا إِلَى مَقَامِي وَأَمَّا هُوَ فَعَلَّقَهُ." (تك ٤١: ١-١٣)

الآن.. جاء الوقت المرتب من قِبَل الله ليرفع يوسف.. وكان يوسف قد بلغ حوالي ٣٠ سنة.. قضى ١٣ سنة منها بين العبودية والسجن، وأخيراً تذكره رئيس السقاة عندما حلم فرعون حُلماً أزعه.. وطلب فرعون تفسير الحلم فلم يستطع أحد أن يفسر حلمه.. فتذكر رئيس السقاة يوسف وقال لفرعون "أنا أتذكّر **اليومَ خطاياي**" (تك ٤١ : ٩).

تذكر رئيس السقاة خطيته، وهو أنه أخلف وعده أن يذكر يوسف أمام فرعون ولكنه نسيه لسنتين. ونحن كثيراً ما نخطئ مثله فنعد الناس أن نصلي من أجلهم ولا نفى بوعودنا. دعونا نتذكر دائماً أن كل كلمة نقولها تُحسب علينا.. فلا تعد إلا بما تقدر أن تفي به.

يوسف يخرج من السجن إلى القصر

"فَأرْسَلَ فِرْعَوْنُ وَدَعَا يُوسُفَ فَأَسْرَعُوا بِهِ مِنَ السِّجْنِ. فَحَلَقَ وَأَبْدَلَ ثِيَابَهُ وَدَخَلَ عَلَى فِرْعَوْنَ. فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: "حَلْمْتُ حُلْماً وَلَيْسَ مِنْ يَعْبرَهُ. وَأَنَا سَمِعْتُ عَنْكَ قَوْلًا إِنَّكَ تَسْمَعُ أَحْلَامًا لِتَعْبرَهَا". فَأَجَابَ يُوسُفَ فِرْعَوْنَ: "لَيْسَ لِي. اللهُ يُجِيبُ بِسَلَامَةٍ فِرْعَوْنَ". فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: "إِنِّي كُنْتُ فِي حُلْمِي وَأَقِفًا عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ. وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ سَمِينَةٌ اللَّحْمِ وَحَسَنَةٌ الصُّورَةِ. فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مَهْزُولَةٌ وَقَبِيحَةٌ الصُّورَةِ جِذَاً وَرَقِيقَةٌ اللَّحْمِ. لَمْ أَنْظُرْ فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصرَ مِثْلَهَا فِي الْقَبَاحَةِ. فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الرَّقِيقَةَ وَالْقَبِيحَةُ الْبَقَرَاتِ السَّبْعِ الْأُولَى السَّمِينَةَ. فَدَخَلْتُ أَجْوَافَهَا. وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهَا دَخَلَتْ فِي أَجْوَافِهَا. فَكَانَ مَنظَرُهَا قَبِيحاً كَمَا فِي الْأَوَّلِ. وَاسْتَيْقَظْتُ. ثُمَّ رَأَيْتُ فِي حُلْمِي وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلٍ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ مُمْتَلِئَةٍ وَحَسَنَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلٍ يَابِسَةٍ رَقِيقَةٍ مَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٌ وَرَاءَهَا. فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةَ السَّنَابِلُ السَّبْعِ الْحَسَنَةَ. فَقُلْتُ لِلسَّحَرَةِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ خُبْرِي". فَقَالَ يُوسُفَ لِفِرْعَوْنَ: "حُلْمُ فِرْعَوْنَ وَاحِدٌ. قَدْ أَخْبَرَ اللهُ فِرْعَوْنَ بِمَا هُوَ صَانِعٌ." (تك ٤١ : ١٤ - ٢٥).

كاد اليأس يتسلل إلى قلب ذلك الرجل الذي أصبح في الثلاثين من عمره، وإن كان لم يفقد الرجاء أبداً في إلهه الذي أراه أحلاماً أن إخوته

سيسجدون له، وإن كان حلم الساقى والخباز قد تحقق خلال ثلاثة أيام فلماذا تتأخر إستجابة أحلامه كل تلك السنين؟

ولكن فى صباح يوم توقع الجميع أنه سيكون يوماً عادياً من أيام السجن الكئيبة.. كان هناك مندوب من عند فرعون يطرق باب السجن حاملاً أمراً بإستدعاء يوسف ليمتثل أمام فرعون حالاً!

وعلى الفور أسرع المسئولون فى السجن ليعدوا يوسف لهذا اللقاء المفاجئ وهم يتمنون له ألا يعود إليهم.. وإن كانوا سيفتقدون هذا الشخص الفريد الذى أحبهم وأحبوه.

ولعل الذكريات قد تدافعت فى خاطر يوسف وهم يضعون على كتفيه ثوباً يليق بمقابلة فرعون.. فمنذ أكثر من ١٧ سنة أثار القميص الملون غيرة إخوته فتحوّل من سيد إلى عبد!.. وقبل عدة سنين ترك ثوبه لدى امرأة فوطيفار وهرب، لتستغله هى كدليل إدانة ضده، ليتحوّل من عبد إلى سجين!

والآن فماذا تفعل به هذه الثياب الجديدة؟ وإلى أى طريق تقوده؟

ودخل يوسف إلى فرعون.. وأخبره فرعون عن حلمه، ولكن قبل تفسير الحلم أكد يوسف لفرعون أن تفسير الحلم ليس بيده إنما بيد الله.

وأعطى يوسف المجد لله.. وأن الله يطمئنه أن هذا الحلم لسلامته "الله يُجيبُ بِسَلَامَةٍ فِرْعَوْنَ" (تك ٤١ : ١٦).. وأن موهبة تفسير الأحلام هى نعمة من عند الله وليست مهارة أو إجتهاداً شخصياً "لَكِنْ لَا أَنَا بَلْ نِعْمَةٌ اللَّهِ الَّتِي مَعِيَ" (اكو ١٥ : ١٠).

أحياناً ينظر الإنسان لموهبة ما عنده أنها موهبته الخاصة وينسى أنها نعمة من عند ربنا.. أما يوسف فكانت هذه الفكرة واضحة فى ذهنه "ليس لى.. الله يجيب".

قصّ فرعون الحلم على يوسف.. بل زاد فى شرحه عندما قال أن البقرات القبيحة استمرت قبيحة بعدما أن أكلت البقرات الحسنة المنظر. وأوضح يوسف لفرعون أن الحلم واحد وتكراره هو رؤيا من الله ليخبره بأمر ما.

يوسف يفسر الحلم

"الْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ. وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْحَسَنَةُ هِيَ سَبْعُ سِنِينَ. هُوَ حُلْمٌ وَاحِدٌ. وَالْبَقَرَاتُ السَّبْعُ الرَّقِيقَةُ الْقَبِيحَةُ الَّتِي طَلَعَتْ وَرَاءَهَا هِيَ سَبْعُ سِنِينَ. وَالسَّنَابِلُ السَّبْعُ الْفَارِعَةُ الْمَلْفُوحَةُ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ تَكُونُ سَبْعَ سِنِينَ جُوعاً. هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي كَلَّمْتُ بِهِ فِرْعَوْنَ. قَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ لِفِرْعَوْنَ مَا هُوَ صَانِعٌ. هُوَذَا سَبْعُ سِنِينَ قَادِمَةٌ شَبَعاً عَظِيماً فِي كُلِّ أَرْضٍ مِصْرَ. ثُمَّ تَقُومُ بَعْدَهَا سَبْعُ سِنِينَ جُوعاً فَيُنْسَى كُلُّ الشَّيْءِ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَيُنْفِئُ الْجُوعَ الْأَرْضَ. وَلَا يُعْرِفُ الشَّيْءُ فِي الْأَرْضِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ الْجُوعِ بَعْدَهُ لِأَنَّهُ يَكُونُ شَدِيداً جِداً. وَأَمَّا عَنْ تَكَرُّرِ الْحُلْمِ عَلَى فِرْعَوْنَ مَرَّتَيْنِ فَلَأَنَّ الْأَمْرَ مُقَرَّرٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَاللَّهُ مُسْرِعٌ لِيَصْنَعَهُ." (تك ٤١ : ٢٦ - ٣٢)

قال يوسف لفرعون أن تفسير الحلم هو أن هناك سبع سنين مليئة بالخير ثم تأتي بعدها سبع سنوات جوع تأكل كل الخير الذي كان على الأرض خلال السبع سنوات الأولى، وأن تكرار الحلم يعني أن الله سيبدأ حالاً في تنفيذ هذا الحلم.

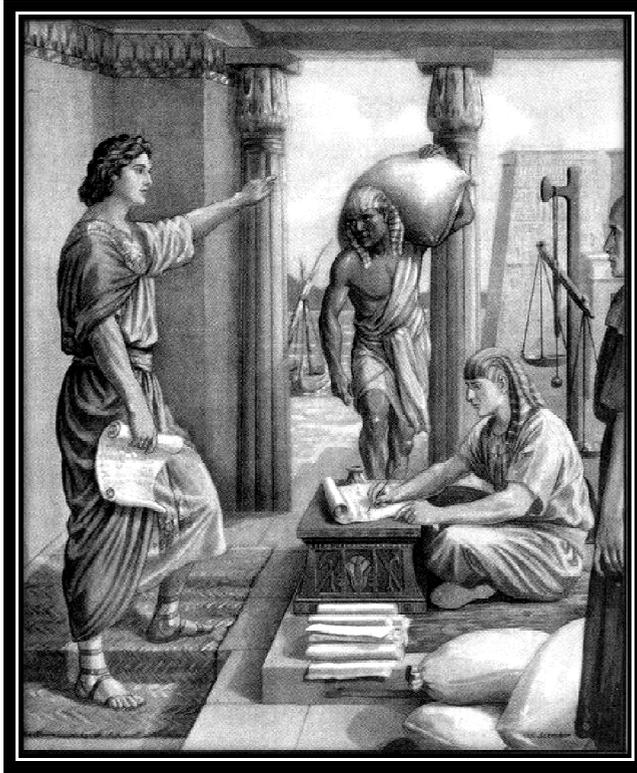
يوسف يضع خطة لإنقاذ العالم من المجاعة

"فَالآنَ لِيَنْظُرْ فِرْعَوْنَ رَجُلًا بَصِيراً وَحَكِيماً وَيَجْعَلُهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ. يَفْعَلْ فِرْعَوْنَ فَيُوكَلِّ نُظَاراً عَلَى الْأَرْضِ وَيَأْخُذْ خُمْسَ غَلَّةِ أَرْضِ مِصْرَ فِي سَبْعِ سِنِينَ الشَّبَعِ. فَيَجْمَعُونَ جَمِيعَ طَعَامِ هَذِهِ السِّنِينَ الْجَيِّدَةِ الْقَادِمَةِ وَيَخْزِنُونَ قَمْحاً تَحْتَ يَدِ فِرْعَوْنَ طَعَاماً. فِي الْمُدُنِ وَيَحْفَظُونَهُ. فَيَكُونُ الطَّعَامُ دُخَيْرَةً لِلأَرْضِ لِسَبْعِ سِنِينَ الْجُوعِ الَّتِي تَكُونُ فِي أَرْضِ مِصْرَ. فَلَا تَنْقَرُضُ الْأَرْضُ بِالْجُوعِ." (تك ٤١ : ٣٣ - ٣٦)

وهنا تظهر حكمة يوسف.. فالحكمة مرتبطة جداً بحقيقة "كان الرب مع يوسف".. فكلما كان الإنسان قريباً من الله كلما إزدادت حكمته.. مع أن يوسف في أول القصة كان قليل الحكمة إلا أن السنين الصعبة التي عاشها بكل ضيقاتها والذل والصلاة الطويلة والتنهيد والتذلل أمام ربنا.. وعشرة العبيد وعشرة

المساجين.. كلها علمته الحكمة وأعطته نعمة أمام الله لأنه تذل وأتضع جداً.. نسي القميص الملون.. نسي كل عز بيت أبيه.. احتمل هذه الأيام الصعبة فتجلد قلبه.. حقاً إن التجارب والأيام الصعبة التي تمر علينا تعطينا بركات كثيرة جداً ومنها فضيلة الحكمة.

اقترح يوسف حلاً جيداً وهو أن يختار فرعون رجلاً حكيماً ويعمل تحت يده نُظَّاراً (أساقفة) ويقومون ببناء مخازن كبيرة جداً في كل مدينة في مصر ليُجمع فيها القمح في سنوات الشبع ويحفظها لسنوات الجوع.. وهكذا يمكنهم أن ينجوا من شر المجاعة.



يوسف حاكم مصر

فرعون يُعين يوسف الرجل الثاني في مصر

"فَحَسَنَ الْكَلَامَ فِي عَيْنِي فِرْعَوْنَ وَفِي عْيُونِ جَمِيعِ عِبِيدِهِ. فَقَالَ فِرْعَوْنَ لِعَبِيدِهِ:
"هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هَذَا رَجُلًا فِيهِ رُوحُ اللَّهِ؟".

ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنَ لِيُوسُفَ: "بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ اللَّهُ كُلَّ هَذَا لَيْسَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ.
أَنْتَ تَكُونُ عَلَيَّ بَيْتِي وَعَلَى فَمِكَ يُقْبَلُ جَمِيعُ شَعْبِي. إِلَّا إِنْ الْكُرْسِيِّ أَكُونُ فِيهِ
أَعْظَمُ مِنْكَ". ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنَ لِيُوسُفَ: "انظُرْ. قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَيَّ كُلَّ أَرْضِ مِصْرَ".

وَوَضَعَ فِرْعَوْنَ خَاتِمَهُ مِنْ يَدِهِ وَجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُفَ وَالْبَسَهُ ثِيَابَ بُوَصٍ وَوَضَعَ
طُوقَ ذَهَبٍ فِي عُنُقِهِ. وَأَرْكَبَهُ فِي مَرْكَبَتِهِ الثَّانِيَةِ وَتَأَدُّوا أَمَامَهُ "ارْكَعُوا". وَجَعَلَهُ
عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. وَدَعَا فِرْعَوْنَ اسْمَ يُوسُفَ "صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ". (مخلص
العالم). وَأَعْطَاهُ أَسْنَاتَ بِنْتِ فُوْطِي فَارَعَ كَاهِنَ أُونِ زَوْجَةً. فَخَرَجَ يُوسُفُ عَلَيَّ
أَرْضِ مِصْرَ. وَكَانَ يُوسُفُ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً لَمَّا وَقَفَ فِدَامَ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْرَ.
فَخَرَجَ يُوسُفُ مِنْ لُدُنْ فِرْعَوْنَ وَاجْتَاَزَ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. " (تك ٤١ : ٣٧ - ٤٦)

أعطى الله نعمة ليوسف عند فرعون.. فحسن كلام يوسف عند فرعون..
فصدقه وعمل على تنفيذ هذا الحل.. وجعله رئيساً على مصر كلها.. يحترمه
ويحبه كل الناس.. على أن يكون فرعون أعظم منه شرفياً فقط.. لأن هذا هو
الوقت الذي حدده الله ليرفع يوسف من الذل إلى المجد.. فرأى فرعون وعبده
في يوسف روح الله.. مثلما حدث بعد ذلك بحوالى ١٠٠٠ سنة عندما رأى
نبوخذ نصر في دانيال رجلاً فيه روح الله "أخيراً دَخَلَ قُدَامِي دَانِيَالُ الَّذِي
اسْمُهُ بَلْطَشَاصَرُ كَاسِمٌ إِلَهِي وَالَّذِي فِيهِ رُوحُ الْإِلَهَةِ الْقُدُّوسِينَ فَقَصَصْتُ الْحُلْمَ
قُدَامَهُ" (دا ٤ : ٨).

تأثر فرعون وبدأ يتكلم عن الله إله العبرانيين الذي لا يعرفه ولا يؤمن به.. تكلم عنه بلغة يوسف المليئة بالحب والإيمان بالله "بَعْدَ مَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هَذَا" (تك ٤١ : ٣٩).. فقد كان يوسف يكرر اسم الله في كل كلامه "لأنَّ الأَمْرَ مُقَرَّرٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ وَاللهُ مُسْرِعٌ لِيَصْنَعَهُ" (تك ٤١ : ٣٢).

تغير حال يوسف من مهانة إلى مجد وبهاء.. ألبسه فرعون مصر خاتمه وألبسه ثياباً فاخرة وطوق ذهب في عنقه وأصبح كل أمر في مصر لا يسرى إلا بإذن يوسف.

وفي ذلك رمزاً آخراً لربنا يسوع المسيح له المجد "وَكُلُّ مَا عَمِلْتُمْ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فَاعْمَلُوا الْكُلَّ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ، شَاكِرِينَ اللهُ وَالْآبَ بِهِ" (كو ٣ : ١٧) فكل همسة وكل حركة في حياتنا لا بد أن تكون بإسم ربنا يسوع له كل المجد.

لم يكتفِ فرعون بما أعطاه ليوسف.. ولكن أيضاً لقبه بـ "صفنات فعنيح" الذي معناه "مخلص العالم".

ويا له من إسم يرمز إلى مخلص العالم الحقيقي الذي لم يوفر الخبز للعالم سبع سنوات فقط بل أعطانا جسده خبزاً نقتات به طوال أعمارنا حتى نصل إلى أحضانه في الفردوس.

لقد كانت أقصى أحلام يوسف أن يتذكره ساقى الملك فيشفع له عند فرعون ليخرج من السجن بعد السنين التي قضاها هناك.

ولم يفكر كيف سيعيش بعد أن يخرج من السجن.. إن خرج!.

هل يعود عبداً في بيت أحد السادة أم يجد وسيلة للرجوع إلى أبيه؟!

ولكن عجيب هو الله في عمله "أَكْثَرَ جِدًّا مِمَّا نَطْلُبُ أَوْ نَتَفَكَّرُ" (أف ٣ : ٢٠).. فقد تحول فجأة من عبد مسجون إلى رئيس وزراء مصر!.. وصاهر كاهناً من كهنة مصر بما له من سلطة ومكانة عظيمة.. وبدأ حلم الطفولة القديم يتحقق.. حين ركعت له الكواكب والحزم.

وهذا أمر لا بد أن نحفظه جيداً ونوقن "أَنَّ كُلَّ الْأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللَّهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُونَ حَسَبَ قَصْدِهِ." (رو ٨ : ٢٨) فبعد الأيام

الصعبة لا بد أن تأتي أيام خير.. لأن الأيام الصعبة تعدنا لأيام المجد والفرح..
"فَتَوَاضَعُوا تَحْتَ يَدِ اللَّهِ الْقَوِيَّةِ لِكَيْ يَرْفَعَكُمْ فِي حِينِهِ، مُلْقِينَ كُلَّ هَمِّكُمْ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ هُوَ
يَعْتَنِي بِكُمْ." (ابط ٥ : ٦ - ٧).

فكثيراً ما صرخ يوسف لله وهو ملقى فى البئر.
وكثيراً ما صرخ منسحقاً وهو فى برية سيناء يشق طريقه نحو المجهول.
وكثيراً ما صرخ متضرعاً وهو فى بيت فوطيفار لينقذه الله من امرأته.
وكثيراً ما صرخ لله فى السجن وهو يشعر بالظلم وليس هناك من ينصفه.
لكن أخيراً جاء يوم لم يعرفه ولم يتوقعه.. خرج فيه من السجن.. لا عبداً بل
وزيراً.. تتحنى أمامه الرؤوس ويخضع له الرؤساء.
فمهما طالَت الأيام الصعبة لا بد أن يأتى اليوم الذى تدخل فيه من باب
الملكوت الضيق.. الملكوت الذى كله فرح وكله خير.

أحياناً.. يضع الله الإنسان فى ظروف قاسية ليعده لرسالة عظيمة..
فالأيام الصعبة لها دور فى تشكيل الإنسان.. دور فى خلاصه.. دور فى
رسالته، فقبل أن يصبح يوسف رئيس وزراء مصر - أعظم دول العالم فى ذلك
الوقت - دربه على القيادة تدريجياً.. فكان رئيساً على عبيد فوطيفار.. ثم رئيساً
على بعض المسجونين فى بيت السجن.. فإن كان قد نجح مع هذه الفئات المتعبة
من الشعب فمن المؤكد أنه سينجح مع الشعب كله.. وكأن الله وضع يوسف فى
فصل إعداد خدام لمدة ١٣ سنة.

سنوات الخير فى مصر

"وَأَثْمَرَتِ الْأَرْضُ فِي سَبْعِ سِنِي الشَّبَعِ بِحُزْمٍ. فَجَمَعَ كُلُّ طَعَامِ السَّبْعِ سِنِينَ الَّتِي
كَانَتْ فِي أَرْضِ مِصْرَ وَجَعَلَ طَعَاماً فِي الْمُدُنِ. طَعَامَ حَقْلِ الْمَدِينَةِ الَّتِي حَوَالَيْهَا
جَعَلَهَا فِيهَا. وَخَزَنَ يُوسُفُ قَمْحاً كَرْمَلِ الْبَحْرِ كَثِيراً جِداً حَتَّى تَرَكَ الْعَدَدَ إِذْ لَمْ يَكُنْ
لَهُ عَدَدٌ." (تك ٤١ : ٤٧ - ٤٩)

أصبح من المتعذر إحصاء محصول القمح.. فالعدد صار كرمل البحر.. هنا تظهر كثرة الخير والبركة التي كانت في أيام يوسف وهو رئيس الوزراء.

التخزين.. التخزين الروحي.. هو مبدأ هام جداً.. وهذا يتضح في مثل العذارى (مت ٢٥ : ١ - ١٣) الذي ذكره ربنا يسوع له المجد.

فالفارق بين العذارى الحكيمات والعذارى الجاهلات لم يكن في المظهر أو في المصاييح أو في كونهن عذارى، ولا حتى في إنتظار العريس فقد تساوين في كل هذه.. ولكن الفارق كان في خزين الزيت وقت مجيء العريس. يتضح هذا المبدأ في حياة الرهبان..

"اعمل في شبابك لتستريح في شيخوختك"

لأنك وأنت شاب تستطيع أن تحفظ الإنجيل والمزامير والألحان وتستطيع أن تعمل ميطنات كثيرة وتصلى لأوقات طويلة وتصوم للغروب.. ولكن متى شخت فلن تستطيع أن تعمل كل هذا بسهولة إنما تخرج من خزينك الخاص.

كما أن خزينك من العمل الروحي ينفحك في وقت ضيق أو تجربة.. وقت حزن أو اضطهاد.. وقت فتور.. وما أكثره.

نحن الآن في أيام خير.. لدينا الفرصة لقراءة الإنجيل.. لحفظ المزامير.. لدينا كنائس مفتوحة.. فلماذا لا نقرأ ونجاهد ونخزن قبل أن تواجهنا تجربة أو ضيقة.. فلنستثمر كل فرصة ممكنة من أجل الخزين الروحي حسب قول الحكيم: **"فِي الصَّبَاحِ ازْرَعْ زَرْعَكَ، وَفِي الْمَسَاءِ لَا تَرْخِ يَدَكَ، لِأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ أَيُّهُمَا يَنْمُو: هَذَا أَوْ ذَاكَ، أَوْ أَنْ يَكُونَ كِلَاهُمَا جَيِّدَيْنِ سَوَاءً."** (جا ١١ : ٦).

العالم يضيع حياته في تخزين المال.. ولكن.. **"مَحَبَّةُ الْمَالِ أَصْلٌ لِكُلِّ الشُّرُورِ"** (اتي ٦ : ١٠).. أما نحن فمملكتنا ليست من هذا العالم.

الرب يرزق يوسف بابنين

"وَوَلِدَ لِيُوسُفَ ابْنَانِ قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ سَنَةُ الْجُوعِ وَلَدَتْهُمَا لَهُ أَسْنَاتُ بِنْتُ فُوطِي فَارَعَ كَاهِنَ أُونِ. وَدَعَا يُوسُفُ اسْمَ الْبِكْرِ مَنْسَى قَائِلاً: لِأَنَّ اللَّهَ أُنْسَانِي كُلَّ تَعْبِي وَكُلَّ بَيْتِ أَبِي وَدَعَا اسْمَ الثَّانِي أَفْرَايِمَ قَائِلاً: لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَنِي مُثْمِراً فِي أَرْضِ مَدْيَنِي." (تك ٤١ : ٥٠ - ٥٢)

أعطى الله ليوسف في سنوات الشبع ابنين.. إسم البكر منسى ومعناه أن الله أنساه كل تعب.. وإسم الآخر أفرايم ومعناه مثمر، أى أن الله أعطاه الخير بكثرة.

وفى العهد القديم كانت الأسماء دائماً تحمل معانى روحية حتى يتذكَّر الإنسان فضل الله عليه.

بدء سنوات المجاعة

"ثُمَّ كَمَلْتُ سَبْعَ سِنِي الشَّبَعِ الَّذِي كَانَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. وَابْتَدَأَتْ سَبْعَ سِنِي الْجُوعِ تَأْتِي كَمَا قَالَ يُوسُفُ. فَكَانَ جُوعٌ فِي جَمِيعِ الْبُلْدَانِ. وَأَمَّا جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ فَكَانَ فِيهَا خُبْزٌ. وَلَمَّا جَاعَتْ جَمِيعُ أَرْضِ مِصْرَ وَصَرَخَ الشَّعْبُ إِلَى فِرْعَوْنَ لِأَجْلِ الْخُبْزِ قَالَ فِرْعَوْنَ لِكُلِّ الْمِصْرِيِّينَ: "اذهَبُوا إِلَى يُوسُفَ وَالَّذِي يَقُولُ لَكُمْ افْعَلُوا".

وَكَانَ الْجُوعُ عَلَى كُلِّ وَجْهِ الْأَرْضِ. وَفَتَحَ يُوسُفُ جَمِيعَ مَا فِيهِ طَعَامٌ وَبَاعَ لِلْمِصْرِيِّينَ. وَاشْتَدَّ الْجُوعُ فِي أَرْضِ مِصْرَ. وَجَاءَتْ كُلُّ الْأَرْضِ إِلَى مِصْرَ إِلَى يُوسُفَ لِشْتُرِيَ قَمْحاً لِأَنَّ الْجُوعَ كَانَ شَدِيداً فِي كُلِّ الْأَرْضِ" (تك ٤١ : ٥٣ - ٥٧)

بعد أن كملت سنوات الخير والشبع بدأت سنوات الجوع على جميع البلاد حتى في مصر.. وصرخوا لفرعون من أجل الطعام فقال لهم "اذهبوا إلى يُوسُفَ وَالَّذِي يَقُولُ لَكُمْ افْعَلُوا" (تك ٤١ : ٥٥).. وهذا التعبير الجميل يذكرنا بما قالته العذراء مريم في معجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل

عندما جاء العبيد يشتكون نفاذ الخمر "قالت أمه للخدّام: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فافْعَلُوهُ»" (يو ٢ : ٥).

وقد يتساءل البعض لماذا كان يوسف يبيع القمح؟.. أليست هذه سنوات مجاعة؟.. ولكن البيع هنا نوع من النظام.. لأنه لو وزّعه دون بيع سيأخذ الناس أكثر من احتياجهم ولا يقدرّون قيمة أنهم في جوع وقحط.

المجاعة تمتد إلى كنعان

"فَلَمَّا رَأَى يَعْقُوبُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحًا فِي مِصْرَ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ: "إِمَادًا تَنْظُرُونَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ؟. إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ يُوجَدُ قَمْحٌ فِي مِصْرَ. انزِلُوا إِلَى هُنَاكَ وَاشْتَرُوا لَنَا مِنْ هُنَاكَ لِنَحْيَا وَلَا نَمُوتَ". فَنَزَلَ عَشْرَةٌ مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِيَشْتَرُوا قَمْحًا مِنْ مِصْرَ. وَأَمَّا بَنِيَامِينَ أَخُو يُوسُفَ فَلَمْ يُرْسِلْهُ يَعْقُوبُ مَعَ إِخْوَتِهِ لِأَنَّهُ قَالَ: "لَعَلَّهُ تُصِيبُهُ أُدْيَةٌ" (تك ٤٢ : ١ - ٤)

أخيراً وبعد عشرين سنة تعود القصة إلى أرض كنعان، حيث يعقوب وإخوة يوسف.. فقد وصلت المجاعة هناك.. ولا يوجد خزين إلا في مصر.. وطلب يعقوب من بنيه أن يذهبوا إلى مصر ليشتروا قمحاً.. ولكنه خاف على ابنه الأصغر بنيامين.. فلم يرسله مع باقي إخوته إلى مصر خوفاً عليه.

لقاء يوسف الأول بإخوته

يوسف يتهم إخوته أنهم جواسيس

"فَأَتَى بَنُو إِسْرَائِيلَ لِيَشْتَرُوا بَيْنَ الَّذِينَ أَثْوَأُوا لَأَنَّ الْجُوعَ كَانَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. وَكَانَ يُوسُفُ هُوَ الْمُسَلِّطُ عَلَى الْأَرْضِ وَهُوَ الْبَائِعَ لِكُلِّ شَعْبِ الْأَرْضِ. فَأَتَى إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا* لَهُ بُوْجُوهَهُمْ إِلَى الْأَرْضِ.

وَلَمَّا نَظَرَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ عَرَفَهُمْ فَتَنَكَّرَ لَهُمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ بِجَفَاءٍ، وَقَالَ لَهُمْ: "مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟" فَقَالُوا: "مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ لِنِشْتَرِيَ طَعَامًا".

وَعَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَعْرِفُوهُ. فَتَدَكَّرَ يُوسُفُ الْأَحْلَامَ الَّتِي حَلَّمَ عَنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: "جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ! لِمَ تَلْتَرُونَ عَوْرَةَ الْأَرْضِ جِئْتُمْ!". فَقَالُوا لَهُ: "لَا يَا سَيِّدِي. بَلْ عَيْبُكَ جَاءُوا لِيَشْتَرُوا طَعَامًا. نَحْنُ جَمِيعُنَا بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ. نَحْنُ أَمْثَاءُ. لَيْسَ عَيْبُكَ جَوَاسِيسَ". فَقَالَ لَهُمْ: "كَلَّا! بَلْ لِمَ تَلْتَرُونَ عَوْرَةَ الْأَرْضِ جِئْتُمْ". فَقَالُوا: "عَيْبُكَ اثْنَا عَشَرَ أَخًا. نَحْنُ بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. وَهُوَ ذَا الصَّغِيرِ عِنْدَ أَبِيْنَا الْيَوْمَ وَالْوَّاحِدُ مَفْقُودٌ". فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: "ذَلِكَ مَا كَلَّمْتُمْ بِهِ قَاتِلًا: جَوَاسِيسُ أَنْتُمْ. بِهَذَا تُمْتَحِنُونَ. وَحَيَاةَ فِرْعَوْنَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْ هُنَا إِلَّا بِمَجِيءِ أَخِيكُمُ الصَّغِيرِ إِلَى هُنَا. أَرْسَلُوا مِنْكُمْ وَاحِدًا لِيَجِيءَ بِأَخِيكُمْ وَأَنْتُمْ تُحْبَسُونَ فِيمَتَحَنَ كَلَامُكُمْ هَلْ عِنْدَكُمْ صِدْقٌ. وَإِلَّا فَوْحِيَاةَ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَجَوَاسِيسُ!". فَجَمَعَهُمْ إِلَى حَبْسٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ. (تك ٤٢ : ٥ - ١٧)

رغم كثرة المهام التي أصبح يوسف مكلفاً بها، ورغم كل الأبهة والسلطان المحيطين به، إلا أنه لم ينسَ أبداً أحلامه القديمة.. فقد فسّر حلمين للساقى والخباز وقد تحققا بعد ثلاثة أيام، وفسّر حلمين آخرين لفرعون.. وقد بدأ

* كان أى إنسان يدخل ليوسف رئيس وزراء مصر يسجد أمامه (وهذا النوع من السجود هو سجود الإحترام وليس سجود العبادة).

تحقيقهما فى نفس العام، ولم يبقَ سوى الحلمين الخاصين به اللذين حلم بهما منذ نحو عشرين عاماً ولكن لم يتحققا بعد.

ولكن يوسف أيقن أنها أصبحت على وشك الحدوث، فلا شك أن المجاعة ستصيب كنعان فيأتى إخوته إليه ساجدين كما رأى حزم القمح والكواكب تسجد له.

وبالطبع كان يوسف يترقب هذا اليوم بشغف فأمر أن يكون هو بنفسه المشرف على عمليات البيع ليرى من هو المشتري، ولا شك أنه تساءل هل سيعرفه إخوته؟.. أم أن السنوات العشرين، والملابس الفرعونية، والفارق الشاسع بين صورة العبد الذى باعوه مكبلاً بالأغلال والوزير الذى تنحنى أمامه هامات الرجال، كل هذا هل سيجعلهم يعجزون عن معرفة أقرب الناس إليهم؟ لذا نعتقد أن يوسف كان قد وضع خطة محكمة إنتظاراً لليوم الذى طال إنتظاره.

وكان إبليس لا يزال يتذكر كيف مُنيَ بهزيمة مؤلمة يوم انتصر يوسف عليه وانتهر امرأة فوطيفار رافضاً الخطية التى يصعب على شاب يناهز العشرين أن يرفضها.. ولكن إبليس لم يستسلم، وظن أن يوسف الذى أفلت من فخ الشهوة الجنسية قد يقع فريسة لشهوة الإنتقام الآن. ولعل من جرب أن يقع ضحية ظلم بشع يدرك ما هى شهوة الإنتقام، وكم هى خطيرة وشرسة ومُلحّة.

لذلك فقد أخذ عدو الخير يوعز إلى يوسف بالكثير من الأفكار فيقول له: "حان وقت الإنتقام يا يوسف.. أرادوا أن يقتلوك فلماذا لا تقتلهم؟.. أو على الأقل يجب أن تعد لهم حفرة كبيرة ترميهم فيها حتى يعرفوا مرارة الجرم الذى ارتكبوه ويذوقوا من كأس العذاب ويختبروا ذل العبودية والسجن الطويل".

وجاء اليوم الموعود وشعر يوسف أن كل رجال القصر يسمعون خفقات قلبه وهو يراقب إخوته يدنون منه ويسجدون أمامه لنتحقق أحلامه القديمة، وبنظرة سريعة لإخوته العشرة تعرّف عليهم جميعاً وأدرك أن بنيامين ليس معهم.

وأما بالنسبة لهم فكان هذا الرجل المهيب الطلعة ذو الملابس المزركشة الذى يتكلم لغة المصريين ولا يعرف لغتهم قد يكون أى إنسان.. إلا يوسف أخاهم.

وهكذا بدأ يوسف تنفيذ المرحلة الأولى من خطته الذكية!

فأتهم يوسف إخوته أنهم جواسيس وأنهم جاءوا ليروا عورة الأرض. أى يروا الأرض مكشوفة ليعرفوا مداخلها ومخارجها ليسهل على جيش الأعداء اجتياحها.. وأنهم تظاهروا بأنهم جاءوا لشراء القمح ليخفوا مهمتهم الحقيقية.. وقد أراد يوسف بذلك أن يعرف هل تغير إخوته أم لا؟

في ذلك الوقت كان قد أدرك خطة الله، وشكر الله كثيراً عليها، ولكنه أراد قبل أن يكشف لإخوته عن شخصيته أن يطمئن أولاً على..

- هل تغيروا بالفعل أم لا؟
- هل الكراهية ما زالت فى قلوبهم أم لا؟
- هل شعروا بخطئهم تجاهه شخصياً؟
- هل يعاملون بنيامين شقيقه بمحبة حقيقية؟ أم يغيرون منه أيضاً؟

ولكن كيف يتأكد؟.. لابد أن يستدرجهم لإحضار بنيامين.

وهكذا تكلم يوسف مع إخوته بجفاء ليستدرجهم إلى الإقرار بالحقيقة.. فلما قالوا له: "نَحْنُ بَنُو رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. وَهُوَذَا الصَّغِيرُ عِنْدَ أَبِيْنَا الْيَوْمَ وَالْوَّاحِدُ مَقْفُودٌ" اطمأن أن أباه يعقوب حي وكذلك شقيقه بنيامين، وعرف أيضاً أن أباه يعتقد أنه مفقود.. فهم لم يقولوا لأبيهم أنه مات، وإنما أروه القميص ملوثاً بالدم تاركين له إستنتاج الباقي.. فطلب منهم أن يحضروا أخاهم الصغير ليثبتوا أنهم صادقون.

وأمر بحبسهم ثلاثة أيام ليذوقوا بعضاً من مرارة الظلم فيراجعوا أنفسهم ويتوبوا.. ولم تكن تلك قسوة من يوسف أو إنتقام، فلو أراد أن ينتقم لفعل بهم ما

أراد.. ولكن يوسف كان ثابتاً على حب إخوته - كما سنرى - إنما أراد صلاحهم وتوبتهم.

معاملة يوسف لإخوته تشبه طريقة معاملة ربنا يسوع - له المجد - لنا.. فأحياناً نتصور أن الله يعاملنا بجفاء أو بشيء من القسوة.. لكنه يفعل هذا ليكتتنا على خطايانا لتتوب ونُصلح أخطائنا.. ولا يكون هذا الجفاء وهذه الشدة الوقتية من قلبه.. فالسيد المسيح - له المجد - يتألم معنا ويبكي معنا.. ولكننا قد لا نتوب إلا بهذه الطريقة.

شامعون يبقى رهينة في مصر وعودة باقى الإخوة

"ثُمَّ قَالَ لَهُمْ يُوسُفُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ: "افْعَلُوا هَذَا وَاحْيُوا. أَنَا خَائِفُ اللَّهِ. إِنْ كُنْتُمْ أَمَنَاءَ فَلْيُحْبَسْ أَخٌ وَاحِدٌ مِنْكُمْ فِي بَيْتِ حَبْسِكُمْ وَأَنْطَلِفُوا أَنْتُمْ وَخَذُوا قَمْحًا لِمَجَاعَةِ بِيوتِكُمْ. وَأَحْضِرُوا أَخَاكُمُ الصَّغِيرَ إِلَيَّ فَيَتَحَقَّقَ كَلَامُكُمْ وَلَا تَمُوتُوا".

فَفَعَلُوا هَكَذَا. وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: "حَقًّا إِنَّا مَدْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا الَّذِي رَأَيْنَا ضَيْقَهُ نَفْسِهِ لَمَّا اسْتَرْحَمْنَا وَلَمْ نَسْمَعْ. لِذَلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هَذِهِ الضَّيْقَةُ". فَأَجَابَهُمْ رَأوْبِينُ: "أَلَمْ أَكَلِّمَكُم قَائِلًا: لَا تَأْتُمُوا بِالْوَلَدِ وَأَنْتُمْ لَمْ تَسْمَعُوا؟ فَهُوَذَا دَمُهُ يُطَلَّبُ". وَهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُوسُفَ فَاهِمٌ؛ لِأَنَّ التَّرْجُمَانَ كَانَ بَيْنَهُمْ. فَتَحَوَّلَ عَنْهُمْ وَبَكَى. ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِمْ وَكَلَّمَهُمْ وَأَخَذَ مِنْهُمْ شَمْعُونَ وَفَيْدَهُ أَمَامَ عِيُونِهِمْ.

ثُمَّ أَمَرَ يُوسُفُ أَنْ تُمَلَأَ أَوْعِيَتُهُمْ قَمْحًا وَتُرَدَّ فِضَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ إِلَى عِدْلِهِ (سواله) وَأَنْ يُعْطُوا زَادًا لِلطَّرِيقِ. فَفَعِلَ لَهُمْ هَكَذَا. فَحَمَلُوا قَمَحَهُمْ عَلَى حَمِيرِهِمْ وَمَضُوا مِنْ هُنَاكَ. فَلَمَّا فَتَحَ أَحَدُهُمْ عِدْلَهُ لِيُعْطِيَ عَلِيْقًا لِحِمَارِهِ فِي الْمَنْزِلِ رَأَى فِضَّتَهُ وَإِذَا هِيَ فِي فَمِ عِدْلِهِ. فَقَالَ لِإِخْوَتِهِ: "رُدَّتْ فِضَّتِي وَهِيَ فِي عِدْلِي". فَطَارَتْ قُلُوبُهُمْ وَارْتَعَدُوا بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ قَائِلِينَ: "مَا هَذَا الَّذِي صَنَعَهُ اللَّهُ بِنَا؟" (تك ٤٢: ١٨ - ٢٨)

ثلاثة أيام.. مضت على يوسف أطول مما مضت على الإخوة العشرة.. نعم هو ينام في قصره على سريريه ولكن قلبه كان هناك مع إخوته في سجنهم. فهو وإن كان قد تجرع الظلم لأعوام طويلة لا يريد لإخوته إلا الجرعة التي تجعلهم يفيقون من سكرة الإثم دون أن يكتفوا بنار الظلم الحارقة.

عاد يوسف وأحضرهم أمامه وهم يتمنون أن يكون قد اقتنع ببراءتهم.. أما هو فأخبرهم أنه سيسمح لتسعة منهم بالعودة بالقمح ويستبقى أحدهم رهينة إلى أن يثبتوا صدقهم بأن يعودوا إلى مصر ومعهم أخوهم الصغير.

ولم يكن الطلب سهلاً.. فيعقوب أبوهم سيغتم كثيراً لسجن أحدهم.. ومن العسير جداً أن يوافق على نزول بنيامين.. وبذلك أصبحوا في ضيقة شديدة.. وتوارد إلى خاطرهم ذلك اليقين أن "الَّذِي يَزْرَعُهُ الْإِنْسَانُ إِيَّاهُ يَحْصُدُ أَيْضاً" (غل ٦ : ٧)

فتذكروا ظلمهم لأخيهم يوسف وتكلموا فيما بينهم كيف كان يسترحمهم وهو في البئر فلم يرحموه.. واستعطفهم وهم يبيعونه بعشرين من الفضة فلم يصغوا إليه.. وعاد رأوبين البكر يذكرهم أنه لم يوافقهم رأيهم.. أكثر من عشرين عاماً مضت ولكنها لم تكن كافية أبداً لمحو ذكرى الخطيئة!

وكان الحوار بلغتهم الكنعانية.. فظنوا أنه لن يفهمها إلا الترجمان الذي أحضره يوسف حتى يخفى عنهم شخصيته.. وكان الترجمان يترجم ما يريدون أن يقولوه ليوسف.. أما الحوار الذي دار فيما بينهم فلم يكن الترجمان ينقله.

لكن يوسف سمع كلامهم وعرف حقيقة ما حدث وعاودته الكثير من الذكريات وشعر أن قلوبهم تحركت للتوبة.. وبقلبه الرقيق وبحبه لإخوته.. ابتعد عنهم قليلاً وأخذ يبكي.

ثم قيّد يوسف شمعون إلى حين احضار بنيامين - ويُعتقد أن شمعون هو أكثرهم قسوة - وأمر أن تُملاً أوعيتهم قمحاً وتُرد فضتهم كل واحد إلى عدله - والجدل هو كيس كبير يوضع على الخيل - فلما رجعوا اكتشفوا أن فضتهم معهم.. فإندهشوا لأنهم اشتروا القمح بالفضة ولكنهم وجدوا القمح والفضة فابتدعوا يتساءلون.. "ماذا فعل الله بنا؟.. ولماذا تحدث هذه الأمور الغريبة معنا؟.. ماذا يريد الله أن يقول؟".

يعقوب يرفض نزول بنيامين إلى مصر

"فَجَاءُوا إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ مَا أَصَابَهُمْ قَائِلِينَ: "تَكَلَّمَ مَعَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الْأَرْضِ بِجَفَاءٍ وَحَسَبْنَا جَوَاسِيسَ الْأَرْضِ". فَقُلْنَا لَهُ: نَحْنُ أُمَّاءٌ. لَسْنَا جَوَاسِيسَ. نَحْنُ اثْنَا عَشَرَ أَخًا بَنُو أَبِيْنَا. الْوَاحِدُ مَفْقُودٌ وَالصَّغِيرُ الْيَوْمَ عِنْدَ أَبِيْنَا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَقَالَ لَنَا الرَّجُلُ سَيِّدُ الْأَرْضِ: بِهَذَا أَعْرِفُ أَنَّكُمْ أُمَّاءٌ. دَعُوا أَخًا وَاحِدًا مِنْكُمْ عِنْدِي وَخُذُوا لِمَجَاعَةٍ بِيُوتِكُمْ وَأَنْطَلِقُوا. وَأَحْضِرُوا أَخَاكُمْ الصَّغِيرَ إِلَيَّ فَأَعْرِفُ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ جَوَاسِيسَ بَلْ أَنَّكُمْ أُمَّاءٌ فَأَعْطِيكُمْ أَخَاكُمْ وَتَنْجِرُونَ فِي الْأَرْضِ".

وَإِذْ كَانُوا يُفَرِّغُونَ عَدَالَهُمْ إِذَا صُرَّةُ فِضَّةٍ كُلِّ وَاحِدٍ فِي عَدْلِهِ. فَلَمَّا رَأَوْا صُرَّةَ فِضَّتِهِمْ هُمْ وَأَبُوهُمْ خَافُوا.

فَقَالَ لَهُمْ يَعْقُوبُ: "أَعْدَمْتُوَنِي الْأَوْلَادَ! يُوسُفُ مَفْقُودٌ وَشَمْعُونُ مَفْقُودٌ وَبَنِيَامِينَ تَأْخُذُونَهُ! صَارَ كُلُّ هَذَا عَلَيَّ!" وَقَالَ رَأُوبِينُ لِأَبِيهِ: "اقْتُلْ ابْنِي إِنْ لَمْ أَجِبْ بِهِ إِلَيْكَ. سَلَّمَهُ بِيَدِي وَأَنَا أَرُدُّهُ إِلَيْكَ". فَقَالَ: "لَا يَنْزِلُ ابْنِي مَعَكُمْ لِأَنَّ أَخَاهُ قَدْ مَاتَ وَهُوَ وَحْدَهُ بَاقٍ. فَإِنْ أَصَابَتْهُ أُدْيَةٌ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَذْهَبُونَ فِيهَا نُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بِحُزْنٍ إِلَى الْهَاطِيَةِ" (تك ٤٢ : ٢٩ - ٣٨)

ندب يعقوب يومه حين فقد يوسف، واليوم فقد شمعون، وشعر أنه سيفقد بنيامين أيضاً فقال لهم "أَعْدَمْتُوَنِي الْأَوْلَادَ" .. وقد كان مُحَقِّقاً في هذا التعبير دون أن يعلم لأنهم كانوا حقاً السبب في كل الخسائر.

فهم الذين تخلصوا من يوسف .. وهم الذين تركوا شمعون في مصر .. وهم الذين يريدون أن يأخذوا معهم بنيامين .. ورفض يعقوب هذا الطلب حتى بعد أن عرض عليه رأوبين أن يأخذ بنيامين ويترك ابنه رهينة! .. فإن لم يرجع بنيامين يقتل يعقوب ابن رأوبين! .. لكن يعقوب أصر على الرفض خوفاً من أن يصيب بنيامين أذى في الطريق .. فيموت هو حزناً عليه .. كما أنه يستحيل أن يقتل حفيده إنتقاماً لأي أذى يصيب بنيامين.

استمرار الجماعة يجبر يعقوب على إعادة التفكير

"وَكَانَ الْجُوعُ شَدِيدًا فِي الْأَرْضِ. وَحَدَّثَ لَمَّا فَرَعُوا مِنْ أَكْلِ الْقَمْحِ الَّذِي جَاءُوا بِهِ مِنْ مِصْرَ أَنْ أَبَاهُمْ قَالَ لَهُمْ: "ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ". فَقَالَ لَهُ يَهُودًا: "إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَشْهَدَ عَلَيْنَا قَائِلًا: لَا تَرُونَ وَجْهِي بَدُونَ أَنْ يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ. إِنْ كُنْتَ تُرْسِلُ أَخَانَا مَعَنَا نَنْزِلُ وَنَشْتَرِي لَكَ طَعَامًا. وَلَكِنْ إِنْ كُنْتَ لَا تُرْسِلُهُ لَا نَنْزِلُ. لِأَنَّ الرَّجُلَ قَالَ لَنَا: لَا تَرُونَ وَجْهِي بَدُونَ أَنْ يَكُونَ أَخُوكُمْ مَعَكُمْ".

فَقَالَ إِسْرَائِيلُ (يعقوب): "لِمَاذَا أَسَأْتُمْ إِلَيَّ حَتَّى أَخْبَرْتُمُ الرَّجُلَ أَنَّ لَكُمْ أَخًا أَيْضًا؟". فَقَالُوا: "إِنَّ الرَّجُلَ قَدْ سَأَلَ عَنَّا وَعَنْ عَشِيرَتِنَا قَائِلًا: هَلْ أَبُوكُمْ حَيٌّ بَعْدُ؟ هَلْ لَكُمْ أَخٌ؟ فَأَخْبَرْتَاهُ بِحَسَبِ هَذَا الْكَلَامِ. هَلْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُولُ انْزِلُوا بِأَخِيكُمْ؟" (تك ٤٣ : ١ - ٧)

بسبب الجوع الشديد المستمر فرغ القمح الذى أحضره من مصر.. فطلب يعقوب من أولاده الذهاب لمصر لشراء قمح ولكنهم قالوا ليعقوب أننا لا نستطيع أن نذهب إلى مصر بدون بنيامين.. فسألهم يعقوب عن سبب اخبار الرجل فى مصر بأمر أخيهم.. فأوضحوا له أن الرجل سألهم عما إذا كان أبوهم حي أم لا.. وإن كان لهم أخ أم لا.. ومن هنا نعلم أن يوسف سأل عما إذا كان أبوه لا يزال حياً.. وهذا ما لم يُذكر فى الحوار مع إخوته فى الآيات السابقة.. لأن يوسف كان مشغولاً بأمر أبيه وأخيه.. أقرب الناس إليه.

يعقوب يوافق مرغماً على نزول بنيامين مع إخوته

"وَقَالَ يَهُودًا لِإِسْرَائِيلَ أَبِيهِ: "أَرْسِلِ الْعُلَامَ مَعِيَ لِنُقُومَ وَتَذْهَبَ وَتَحْيَا وَلَا تَمُوتَ نَحْنُ وَأَنْتَ وَأَوْلَادُنَا جَمِيعًا. أَنَا أَضْمَنُهَا. مِنْ يَدِي تَطْلُبُهَا. إِنْ لَمْ أَجِبْ بِه إِلَيْكَ وَأَوْقِفَهُ قَدَامَكَ أَصِرُّ مُدْنِبًا إِلَيْكَ كُلَّ الْأَيَّامِ. لِأَنَّنَا لَوْ لَمْ نَتَوَانَ لَكُنَّا قَدْ رَجَعْنَا الْآنَ مَرَّتَيْنِ".

فَقَالَ لَهُمْ إِسْرَائِيلُ أَبُوهُمْ: "إِنْ كَانَ هَكَذَا فَافْعَلُوا هَذَا: خُذُوا مِنْ أَفْخَرِ جَنَى الْأَرْضِ فِي أَوْعِيَتِكُمْ وَأَنْزِلُوا لِلرَّجُلِ هَدِيَّةً. قَلِيلًا مِنَ الْبَلْسَانَ (أعشاب طبية) وَقَلِيلًا

مِنَ الْعَسَلِ وَكَثِيرَاءَ (نوع من الصمغ) وَلَادْنَأَ (نوع من اللبان) وَفَسْتَقًا وَلَوْزًا. وَخَذُوا
فِضَّةَ أُخْرَى فِي أَيَادِيكُمْ. وَالْفِضَّةَ الْمَرْدُودَةَ فِي أَفْوَاهِ عِدَالِكُمْ رُدُّوهَا فِي أَيَادِيكُمْ.
لَعَلَّهُ كَانَ سَهْوًا. وَخَذُوا أَحَاكُمُ وَقَوْمُوا ارْجِعُوا إِلَى الرَّجْلِ. وَاللَّهُ الْقَدِيرُ يُعْطِيكُمْ
رَحْمَةً أَمَامَ الرَّجْلِ حَتَّى يُطْلَقَ لَكُمْ أَحَاكُمُ الْآخَرَ وَبَنِيَامِينَ. وَأَنَا إِذَا عَدِمْتُ الْأَوْلَادَ
عَدِمْتُهُمْ" (تك ٤٣ : ٨ - ١٤)

طلب يهوذا من أبيه أن يعطيهم بنيامين وهو يضمه ويعيده إليه.. فوافق
هذه المرة تحت وطأة المجاعة التي فرضت النزول إلى مصر كأمر حتمي لا
مهرب منه.

وطلب منهم يعقوب أن يأخذوا معهم هدايا لهذا الرجل من النباتات التي
تنمو في كنعان ولا توجد في مصر.

وهكذا نجد أن يعقوب تغير كثيراً عن بداية حياته.. فلم يعد هو ذلك
المخادع الذي يشتري البكورية من أخيه بأكلة عدس.. ولا ذلك الرجل الذي
يخدع أباه ليأخذ البركة.. أو يخدع خاله لابان لسنين طويلة.

بل بالعكس هو الآن الذي يبادر بإرجاع الفضة التي جاءت مع أبنائه..
فربما وضعت معهم سهواً ولا حق لهم فيها.. وطلب أن يأخذوا معهم هدية لهذا
الرجل.. فلقد انتهى حب المال من قلب يعقوب وقد أصبح قديساً ممثلاً من
الفضائل عبر سنين طويلة من التجارب والآلام والصلاة.

لقاء يوسف الثاني بإخوته

العودة إلى مصر تحت وطأة المجاعة

"فَأَخَذَ الرَّجَالُ هَذِهِ الْهَدِيَّةَ وَأَخَذُوا ضِعْفَ الْفِضَّةِ فِي أَيَادِيهِمْ وَبَنِيَامِينَ وَقَامُوا وَنَزَلُوا إِلَى مِصْرَ وَوَقَفُوا أَمَامَ يُوسُفَ. فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ بَنِيَامِينَ مَعَهُمْ قَالَ لِلَّذِي عَلَى بَيْتِهِ: "أَدْخِلِ الرَّجَالَ إِلَى الْبَيْتِ وَادْبَحْ ذَبِيحَةَ وَهْيَئِ لَأَنَّ الرَّجَالَ يَأْكُلُونَ مَعِيَ عِنْدَ الظَّهْرِ". فَفَعَلَ الرَّجُلُ كَمَا قَالَ يُوسُفُ. وَأَدْخَلَ الرَّجُلُ الرَّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ. فَخَافَ الرَّجَالَ إِذْ أَدْخَلُوا إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَقَالُوا: "لِسَبَبِ الْفِضَّةِ الَّتِي رَجَعْتَ أَوْلَى فِي عِدَالِنَا نَحْنُ قَدْ أَدْخَلْنَا لِيَهْجَمَ عَلَيْنَا وَيَقَعَ بِنَا وَيَأْخُذَنَا عِبِيدًا وَحَمِيرًا".

فَتَقَدَّمُوا إِلَى الرَّجُلِ الَّذِي عَلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَكَلَّمُوهُ فِي بَابِ الْبَيْتِ. وَقَالُوا: "اسْمَعْ يَا سَيِّدِي. إِنَّا قَدْ نَزَلْنَا أَوْلَى لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. وَكَانَ لَمَّا أَتَيْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ أَنَّنَا فَتَحْنَا عِدَالِنَا وَإِذَا فِضَّةٌ كُلُّ وَاحِدٍ فِي فَمِ عِدْلِهِ. فَضُنَّنا بوزنِهَا. فَقَدْ رَدَدْنَاهَا فِي أَيَادِينَا. وَأَنْزَلْنَا فِضَّةً أُخْرَى فِي أَيَادِينَا لِنَشْتَرِيَ طَعَامًا. لَا نَعْلَمُ مَنْ وَضَعَ فِضَّتَنَا فِي عِدَالِنَا" (تك ٤٣ : ١٥ - ٢٢)

أقنع يهوذا أباه يعقوب أن يأخذ بنيامين معه إلى مصر.. إستجابة لطلب سيد الأرض يوسف.. حتى يعطيهم ما يأكلوه في أيام الجوع. وفرح يوسف بقدم إخوته وبنيامين.. ولكنه لم يستطع أن يظهر فرحته، فأدخلهم بيته وصنع لهم وليمة.

ولكنهم خافوا واعتقدوا أن يوسف قبض عليهم بسبب الفضة.. فابتدءوا يدافعون عن أنفسهم ويوضحون أنهم أبرياء من سرقة الفضة.. فلأول مرة يدفون معنى الظلم ومعنى الخوف من جرم لم يرتكبوه.. وهنا أيضاً تظهر لنا صورة الله الرحوم الذي يريد أن يكرمنا ولكننا نخاف منه بسبب كثرة خطايانا.

يوسف يطمئن إخوته

"فَقَالَ: "سَلَامٌ لَكُمْ. لَا تَخَافُوا. إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ أَبِيكُمْ أَعْطَاكُمْ كَثْرًا فِي عِدَالِكُمْ. فَصَنَعْتُكُمْ وَصَلْتُ إِلَيَّ". ثُمَّ أَخْرَجَ إِلَيْهِمْ شَمْعُونَ. وَأَدْخَلَ الرَّجُلَ الرَّجَالَ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَأَعْطَاهُمْ مَاءً لِيَعْسِلُوا أَرْجُلَهُمْ وَأَعْطَى عَلِيْقًا لِحَمِيرِهِمْ. وَهَيَّأُوا الْهَدِيَّةَ إِلَى أَنْ يَجِيءَ يُوسُفَ عِنْدَ الظُّهْرِ. لِأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُمْ هُنَاكَ يَأْكُلُونَ طَعَامًا." (تك ٤٣ : ٢٣ - ٢٥)

أخذ الرجل الذي على بيت يوسف يطمئنهم وقال لهم أن إلهكم وإله أبيكم هو الذي أعاد لكم الفضة فلا تخافوا.. فقد كان الإسم المعروف لله هو (إله الآباء - إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب).. ثم أعاد إليهم شمعون فاطمأنوا، ولا شك أن شمعون قد أخبرهم أنه طوال تلك الشهور كان يحظى بمعاملة كريمة جداً. وأخيراً أعدوا هدية يوسف ليقدموها له حين يعود ويأكلون معه.

يوسف يبكي لدى رؤية بنيامين

"فَلَمَّا جَاءَ يُوسُفُ إِلَى الْبَيْتِ أَحْضَرُوا إِلَيْهِ الْهَدِيَّةَ الَّتِي فِي أَيْدِيهِمْ إِلَى الْبَيْتِ وَسَجَدُوا لَهُ إِلَى الْأَرْضِ. فَسَأَلَ عَنْ سَلَامَتِهِمْ وَقَالَ: "أَسَالِمُ أَبُوكُمْ الشَّيْخَ الَّذِي قُلْتُمْ عَنْهُ؟ أَحْيَى هُوَ بَعْدُ؟". فَقَالُوا: "عَبْدُكَ أَبُوْنَا سَالِمٌ. هُوَ حَيٌّ بَعْدُ". وَخَرُّوا وَسَجَدُوا. فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ بَنِيَامِينَ أَخَاهُ ابْنَ أُمِّهِ وَقَالَ: "أَهَذَا أَحْوَكُمُ الصَّغِيرُ الَّذِي قُلْتُمْ لِي عَنْهُ؟" ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُ يَنْعِمُ عَلَيْكَ يَا ابْنِي". وَاسْتَعْجَلَ يُوسُفُ لِأَنَّ أَحْشَاءَهُ حَبَّتْ إِلَى أَخِيهِ وَطَلَبَ مَكَانًا لِيُبْكِيَ. فَدَخَلَ الْمَخْدَعِ وَبَكَى هُنَاكَ." (تك ٤٣ : ٢٦ - ٣٠)

قد تكون دموع الرجال عزيزة جداً.. لا سيما لشخص في منصب مرموق مثل يوسف.. ولكن من هو الإنسان الذي يستطيع أن يتحمل كل هذا الضغط على مشاعره وهو يبصر شقيقه المحبوب الذي تركه طفلاً والآن يراه رجلاً!

وبقوة جبارة يقاوم يوسف رغبته أن يعتصر بنيامين وسائر إخوته بين ذراعيه ولكنه يقاوم ويتجلد حتى يعرف إجابة سؤال أكثر إلحاحاً:

- هل يَغَيِّرُ الإخوة من بنيامين إذا تميَّز عنهم فى أمر ما؟
- وهل سيتزكونه ويتكرون له إذا وقع فى ورطة ما؟

كانت خطة يوسف أن يفتعل هذين الموقفين حتى يتأكد بنفسه من الإجابة.

ولم تكن لحظة سجود إخوته الأحد عشر أمامه لحظة افتخار أو كبرياء بتحقق الحلم القديم، بل كان كل ما يهمه هو الإطمئنان على سلامة أبيه قبل أن تحن أحشائه فيسرع خارجاً ويطلق لدموعه العنان. هكذا يكون الإنسان النقى القلب الذى تحن أحشائه إلى إخوته لأنه قبل كل شيء يخاف على خلاص نفوسهم.

الإختبار الأول: هل يغار الإخوة من بنيامين؟

"ثُمَّ عَسَلَ وَجْهَهُ وَخَرَجَ وَتَجَلَّدَ وَقَالَ: "فَدَمُّوا طَعَامًا". فَقَدَّمُوا لَهُ وَحْدَهُ وَلَهُمْ وَحْدَهُمُ وَالْمِصْرِيِّينَ الْأَكْلِينَ عِنْدَهُ وَحْدَهُمْ لِأَنَّ الْمِصْرِيِّينَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَأْكُلُوا طَعَامًا مَعَ الْعِبْرَانِيِّينَ لِأَنَّهُ رَجَسٌ عِنْدَ الْمِصْرِيِّينَ. فَجَلَسُوا قُدَّامَهُ: الْبِكْرُ بِحَسَبِ بُكُورِيَّتِهِ وَالصَّغِيرُ بِحَسَبِ صِغَرِهِ. فَبُهِتَ الرَّجَالُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. وَرَفَعَ حِصَصًا مِنْ قُدَّامِهِ إِلَيْهِمْ. فَكَانَتْ حِصَّةَ بَنِيَامِينَ أَكْثَرَ مِنْ حِصَصِ جَمِيعِهِمْ خَمْسَةَ أَضْعَافٍ. وَشَرَبُوا وَرَوُّوا مَعَهُ" (تك ٤٣ : ٣١ - ٣٤)

كان المصريون لا يأكلون مع العبرانيين فقد كانوا يحتقرونهم، ويعتبرون أن مهنة الرعي التى يمارسها العبرانيون مهنة حقيرة لا ترقى للزراعة والفلاحة التى يتقنها المصريون وتحتاج للكثير من الخبرة والمهارة، ولذلك سجد أنه عند نزول يعقوب وأولاده إلى مصر سيعطونهم معسكراً بعيداً عنهم فى رعمسيس.

فجلس المصريون فى جانب للأكل وجلس الإخوة الأحد عشر فى جانب آخر ولكنهم أجلسوهم حسب أعمارهم وكأنهم يعرفون تواريخ ميلادهم!

ولعل يوسف أراد أن يجعل إخوته يشعرون بالمزيد من المهابة والخشية تجاهه، وتجاه المصريين كلهم.. هؤلاء الذين يرتبون ١١ أخاً من الأكبر إلى الأصغر دون سابق معرفة.. ووضع يوسف لبنيامين حصة الطعام خمسة أضعاف حصص سائر الإخوة، ليجعل الموقف مشابهاً لذلك الذي حدث يوم اختصه يعقوب أبوه بالقميص الملون دون سائر إخوته.. وأخذ يراقب نظراتهم ويصغى لأحاديثهم وهم مطمئنون أنه لا يفهمهم.. ليرى هل تنهش الغيرة قلوبهم تجاه بنيامين أيضاً.. أم أن قلوبهم أصبحت نقية مُحبة؟!

فلما اطمان أنهم نجحوا في الإختبار الأول.. بدأ يعد لهم الإختبار

التالى!!

الإختبار الثاني: هل يتخلى الإخوة عن بنيامين وقت الضيق؟

"ثُمَّ أَمَرَ الَّذِي عَلَى بَيْتِهِ قَائِلًا: "امْلَأْ عِدَالَ (أَكْيَاس) الرَّجَالِ طَعَامًا حَسَبَ مَا يُطَيِّفُونَ حِمْلَهُ وَضَعْ فِضَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ فِي فَمِ عِدْلِهِ. وَطَاسِي طَاسٍ (كَاس) الْفِضَّةِ تَضَعْ فِي فَمِ عِدْلِ الصَّغِيرِ وَتَمَنَّ قَمْحِهِ". فَقَعَلَ بِحَسَبِ كَلَامِ يُوسُفَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ. فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ انْصَرَفَ الرَّجَالُ هُمْ وَحَمِيرُهُمْ. وَلَمَّا كَانُوا قَدْ خَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَلَمْ يَبْتَاعُوا قَالَ يُوسُفُ لِلَّذِي عَلَى بَيْتِهِ: "قُمْ اسْعَ وَرَاءَ الرَّجَالِ وَمَتَى أَدْرَكْتَهُمْ فَقُلْ لَهُمْ: لِمَ آذَا جَازَيْتُمْ شَرًّا عَوَضًا عَن خَيْرٍ؟ أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَشْرَبُ سَيِّدِي فِيهِ؟ وَهُوَ يَتَفَاعَلُ بِهِ. أَسَأْتُمْ فِي مَا صَنَعْتُمْ" (تك ٤٤ : ١ - ٥)

بحكمة شديدة أراد يوسف أن يطمئن ويتأكد من موقف إخوته من بنيامين ويعلم هل هم مستعدون أن يضحوا به ويستغنوا عنه بسهولة من أجل سلامتهم أم لا؟.. هل يحبون أخاهم الصغير بنيامين أم لا؟.

لذلك طلب يوسف من أحد الخدم أن يضع كأسه الفضية المرصعة بالجواهر والتي يتفاعل بها المصريون، وضعها في عدل بنيامين ليلاً.. وضعها مع الفضة والقمح.. وفي الصباح وبعد أن خرج إخوته من المدينة أرسل وراءهم رجلاً ليتهمهم بسرقة الكأس الثمين من الرجل الذي أكرمهم!

الإخوة العشرة يدافعون عن بنيامين

"فَأَدْرَكَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ هَذَا الْكَلَامَ. فَقَالُوا لَهُ: لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ سَيِّدِي مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ؟ حَاشَا لِعَبِيدِكَ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَ هَذَا الْأَمْرِ! هُوَذَا الْفِضَّةُ الَّتِي وَجَدْنَا فِي أَفْوَاهِ عِبَادِنَا رَدَدْنَاهَا إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. فَكَيْفَ نَسْرِقُ مِنْ بَيْتِ سَيِّدِكَ فِضَّةً أَوْ نَهْبًا؟ الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ مِنْ عَبِيدِكَ يَمُوتُ وَنَحْنُ أَيْضًا نَكُونُ عَبِيدًا لِسَيِّدِي. فَقَالَ: "نَعَمْ الْآنَ بِحَسَبِ كَلَامِكُمْ هَكَذَا يَكُونُ. الَّذِي يُوجَدُ مَعَهُ يَكُونُ لِي عَبْدًا وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَكُونُونَ أَبْرِيَاءَ". فَاسْتَعْجَلُوا وَأَنْزَلُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ إِلَى الْأَرْضِ وَفَتَحُوا كُلُّ وَاحِدٍ عِدْلَهُ. فَفَتَّشَ مُبْتَدِنًا مِنَ الْكَبِيرِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الصَّغِيرِ. فَوُجِدَ الطَّاسُ فِي عَدْلِ بَنِيَامِينَ. فَمَزَّقُوا ثِيَابَهُمْ وَحَمَلَّ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حِمَارِهِ وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ." (تك ٤٤ : ٦ - ١٣)

عندما سمع الإخوة الإتهام الموجه إليهم أخذوا يدافعون عن أنفسهم وكرامتهم ويشرحون كيف أنهم كانوا أمناء عندما أعادوا الفضة التي وجدوها في أكياسهم.. وحكموا حكماً قاسياً بأن يُقتل سارق الكأس، ويصبح باقى الإخوة عبيداً!

أمّا الرجل فكان حكمه أرحم.. وهو أن تقتصر عقوبة العبودية على اللص وحده.. ووسط ثقته المطلقة فى براءتهم فاجأتهم ضربة قاسية.. إذ وجدوا الكأس فى كيس بنيامين!.. فمزّقوا ثيابهم خوفاً عليه ورجعوا إلى المدينة شاعرين أن الدنيا قد أسودت أمام عيونهم.. وهم لا يعلمون ما هو سر كل هذه المصائب والعجائب التى تتوالى عليهم فى مصر؟.. فسيد هذه الأرض يتهمهم بالتجسس دون سبب أو دليل فيحبسهم ثم يستبقى شمعون رهينة.. إذن فهو خصم لهم.

ثم يجدون فضتهم قد عادت لهم.. فهو إذن يحبهم ويحنو عليهم!.. وعند عودتهم يستقبلهم بوليمة فاخرة ويعرف أعمارهم بالترتيب فهو إذن شخص مريب غريب له قدرات خارقة.

وأخيراً فلا شك أن اليد الخفية التى أعادت لهم الفضة هى التى دست الكأس لبنيامين.. وهم واثقون أن بنيامين لا يمكن أن يكون لصاً.. و لكن من

ناحية أخرى لا يستطيعون الدفاع عنه لأن الكأس كان في كيسه وكلهم شهدوا هذا بأعينهم.. فكيف سيدافعون عنه!.. ولو كان المتهم أى شخص آخر لهان الأمر بعض الشيء.. أما بنيامين بالذات فإنهم يفضلون أن تنشق الأرض وتبتلعهم عن العودة لأبيهم بدونه.

الإخوة العشرة ينجحون فى الإختبار الثانى

"فَدَخَلَ يَهُودَا وَإِخْوَتَهُ إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ وَهُوَ بَعْدَ هُنَاكَ وَوَقَعُوا أَمَامَهُ عَلَى الْأَرْضِ. فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: "مَا هَذَا الْفِعْلُ الَّذِي فَعَلْتُمْ؟ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ رَجُلًا مِثْلِي يَتَّفَعَلُ؟". فَقَالَ يَهُودَا: "مَاذَا نَقُولُ لِسَيِّدِي؟ مَاذَا نَتَكَلَّمُ وَبِمَاذَا نَتَّبَرَّرُ؟ اللَّهُ قَدْ وَجَدَ إِثْمَ عِبِيدِكَ. هَا نَحْنُ عِبِيدٌ لِسَيِّدِي نَحْنُ وَالَّذِي وَجَدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ جَمِيعًا". فَقَالَ: "حَاشَا لِي أَنْ أَفْعَلَ هَذَا! الرَّجُلُ الَّذِي وَجَدَ الطَّاسُ فِي يَدِهِ هُوَ يَكُونُ لِي عَبْدًا وَأَمَّا أَنْتُمْ فَاصْعَدُوا بِسَلَامٍ إِلَى أَبِيكُمْ"

ثُمَّ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَهُودَا وَقَالَ: "اسْتَمِعْ يَا سَيِّدِي. لِيَتَكَلَّمَ عَبْدُكَ كَلِمَةً فِي أَدْنَى سَيِّدِي وَلَا يَحْمُ غَضَبَكَ عَلَى عَبْدِكَ لِأَنَّكَ مِثْلُ فِرْعَوْنَ. سَيِّدِي سَأَلَ عِبِيدَهُ: هَلْ لَكُمْ أَبٌ أَوْ أَحٌ؟ فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَنَا أَبٌ شَيْخٌ وَابْنٌ شَيْخُوخَةٌ صَغِيرٌ مَاتَ أَخُوهُ وَبَقِيَ هُوَ وَحَدَهُ لِأُمِّهِ وَأَبُوهُ يُحِبُّهُ. فَقُلْتَ لِعِبِيدِكَ: انزِلُوا بِهِ إِلَيَّ فَأَجْعَلَ نَظْرِي عَلَيْهِ. فَقُلْنَا لِسَيِّدِي: لَا يَقْدِرُ الْعُلَامُ أَنْ يَتْرَكَ أَبَاهُ. وَإِنْ تَرَكَ أَبَاهُ يَمُوتُ. فَقُلْتَ لِعِبِيدِكَ: إِنْ لَمْ يَنْزِلْ أَحْوَكُمُ الصَّغِيرُ مَعَكُمْ لَا تَعُودُوا تَنْظُرُونَ وَجْهِي. فَكَانَ لَمَّا صَعَدْنَا إِلَى عَبْدِكَ أَبِي أَنَّنَا أَخْبَرْنَاهُ بِكَلَامِ سَيِّدِي. ثُمَّ قَالَ أَبُوْنَا: ارْجِعُوا اشْتَرُوا لَنَا قَلِيلًا مِنَ الطَّعَامِ. فَقُلْنَا: لَا نَقْدِرُ أَنْ نَنْزِلَ. وَإِنَّمَا إِذَا كَانَ أَحْوَانَا الصَّغِيرُ مَعَنَا نَنْزِلُ لِأَنَّنا لَا نَقْدِرُ أَنْ نَنْظُرَ وَجْهَ الرَّجُلِ وَأَحْوَانَا الصَّغِيرُ لَيْسَ مَعَنَا. فَقَالَ لَنَا عَبْدُكَ أَبِي: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ امْرَأَتِي وَوَلَدَتُ لِي اثْنَيْنِ. فَخَرَجَ الْوَاحِدُ مِنْ عِنْدِي وَقُلْتُ: إِنَّمَا هُوَ قَدْ افْتَرَسَ افْتِرَاسًا. وَلَمْ أَنْظُرْهُ إِلَى الْآنِ. فَإِذَا أَخَذْتُمْ هَذَا أَيْضًا مِنْ أَمَامِ وَجْهِي وَأَصَابْتُهُ أَدْيَةً تُنْزِلُونَ شَيْبَتِي بَشْرًا إِلَى الْهَآوِيَةِ.

فَالآنَ مَتَى جِئْتُ إِلَى عَبْدِكَ أَبِي وَالْعُلَامُ لَيْسَ مَعَنَا وَنَفْسُهُ مُرْتَبِطَةٌ بِنَفْسِهِ يَكُونُ مَتَى رَأَى أَنَّ الْعُلَامَ مَفْقُودٌ أَنَّهُ يَمُوتُ فَيَنْزِلُ عِبِيدَكَ شَيْبَةً عَبْدُكَ أَبِيْنَا بِحُزْنٍ إِلَى الْهَآوِيَةِ. لِأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ الْعُلَامَ لِأَبِي قَانِيلاً: إِنْ لَمْ أَجِئْ بِهِ إِلَيْكَ أَصِرُّ مُدْتَبِئًا إِلَى أَبِي كُلِّ الْأَيَّامِ. فَالآنَ لِيَمَكُثْ عَبْدُكَ عِوَضًا عَنِ الْعُلَامِ عَبْدًا لِسَيِّدِي وَيَصْعَدِ الْعُلَامُ

مَعَ إِخْوَتِهِ. لِأَنِّي كَيْفَ أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَالْعُلَامِ لَيْسَ مَعِي؟ لِيَلَّا أَنْظَرَ الشَّرَّ الَّذِي يُصِيبُ أَبِي!" (تك ٤٤ : ١٤ - ٣٤)

كان أكثر الإخوة اضطراباً هو يهوذا.. فرغم كونه الرابع فى ترتيب الإخوة إلا أنه قد تعهد أمام أبيه أنه مسئول شخصياً عن سلامة بنيامين (تك ٤٣ : ٨) فقرر أن يبادر بالتصدى للمهمة الصعبة بالدفاع عن أخيه.

وقبل أن يبدأ دفاعه ازداد الموقف صعوبة لأن يوسف أكد أن الكأس المسروق له قيمة معنوية كبيرة وليست مادية فقط.. فهو مصدر التفاؤل ليوسف إذ يجلب له الحظ السعيد (كان التفاؤل بهذه الأشياء من العادات الوثنية لدى الفراعنة).

ولم يكن أمام يهوذا الكثير من الحجج أو الحيل للدفاع عن بنيامين فالتهم متلبس بالجريمة.. ولكن يهوذا كان حكيماً.. فلم يحاول أن ينكر التهمة أو يقسم أنها ملفقة.. لأنه رأى أن هذه الحقيقة تحمل اتهاماً ضمناً ليوسف نفسه أو لعبيده!

كان الإعراف بالخطأ إجابة رائعة من يهوذا فقال: "مَاذَا نَقُولُ لِسَيِّدِي؟ مَاذَا نَتَكَلَّمُ وَبِمَاذَا نَتَبَرَّرُ؟ اللَّهُ قَدْ وَجَدَ إِثْمَ عَيْبِكَ" .. اعترف أنهم آثمون بصفة عامة.. حتى وإن كانوا أبرياء من تلك التهمة بالذات.. وبالطبع كان الإثم الكبير الذى لم ينسوه أبداً هو ما فعلوه بيوسف منذ زمن طويل.. وقد اشترك فيه عشرة منهم ولكن ليس بنيامين.. فلماذا هو بالذات الذى يتعرض للظلم؟

وإذا كان الإعراف بالجريمة هو سيد الأدلة كما يقول رجال القانون.. إلا أن الإعراف بالخطيئة أمام الله يجعله يغفر خطايانا ويدافع عنا!

فلم يجد يهوذا سوى أن يعرض استعدادهم جميعاً أن يبقوا عبيداً ولا يتركوا بنيامين.. وكم أثلجت هذه الكلمات صدر يوسف الذى أيقن كم تغير إخوته.

ولكن يوسف غالب مشاعره المتأججة واستطرد فى تمثيل دوره ليحكم بأن المخطئ وحده هو الذى سيعاقب.. فما كان من يهوذا إلا أن استكمل دفاعه..

فأعاد سرد قصة الإخوة من بدايتها حتى يستعطف قلب يوسف تجاه أبيهم يعقوب الشيخ الذى قد يموت كمدأ لو عادوا دون بنيامين.

وبالطبع أخفى يهوذا أخطر نقطة فى القصة وهى أنهم باعوا أخاهم، ولأول مرة يعرف يوسف أن أباه يظن أن وحشاً قد افترسه، ولعل بنيامين أيضاً كان لديه نفس الاعتقاد.

وطلب يهوذا من يوسف أن يبقى هو عبداً بدلاً من بنيامين على أن يعود بنيامين لأبيه.. وانبهر يوسف بذلك الحب الغامر الذى يفيض من يهوذا وإخوته.

ولعلنا جميعاً نعرف أن يهوذا الذى عرض أن يفدى بنيامين هو الذى أتى من نسله الأسد الخارج من سبط يهوذا - أى السيد المسيح - الذى فدى كل البشرية وأرتضى أن يُصَلب كعبد حقير لكى يفدينا جميعاً وليس بنيامين فقط.

كان لدى يهوذا هذه الروح التى تعلمها بولس الرسول يوم قال "فَأَيُّ كُنْتُ أَوْدُ لَوْ أَكُونُ أَنَا نَفْسِي مَحْرُومًا مِنَ الْمَسِيحِ لِأَجْلِ إِخْوَتِي أَسْبَائِي حَسَبَ الْجَسَدِ" (رو ٩ : ٣). فنجد شفاعة جميلة فى قول يهوذا ليوسف: "لَأَنَّ عَبْدَكَ ضَمِنَ الْغُلَامَ لِأَبِي قَانِيلاً: إِنْ لَمْ أَجِءْ بِهِ إِلَيْكَ أَصِرُّ مُذْنِبًا إِلَى أَبِي كُلِّ الْأَيَّامِ" أى لا يصلح أن أعود لأبى بدون بنيامين.

يوسف يكشف عن نفسه

يوسف ينفجر باكياً ويصاح إخوته

"فَلَمْ يَسْتَطِعْ يُوسُفُ أَنْ يَضْبُطَ نَفْسَهُ لَدَى جَمِيعِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَهُ فَصَرَخَ:
"أُخْرِجُوا كُلَّ إِنْسَانٍ عَنِّي!" فَلَمْ يَقِفْ أَحَدٌ عِنْدَهُ حِينَ عَرَفَ يُوسُفُ إِخْوَتَهُ
بِنَفْسِهِ. فَاطْلَقَ صَوْتَهُ بِالْبُكَاءِ. فَسَمِعَ الْمِصْرِيُّونَ وَسَمِعَ بَيْتُ فِرْعَوْنَ. وَقَالَ
يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: "أَنَا يُوسُفُ. أَحْيِ أَبِي بَعْدُ؟" فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِخْوَتَهُ أَنْ يُجِيبُوهُ لِأَنَّهُمْ
ارْتَاعُوا مِنْهُ." (تك ٤٥ : ١ - ٣)

لم يكن من الممكن ليوسف أو أى إنسان آخر على وجه الأرض أن يغالب دموعه بعد كل تلك الأحداث، وعندما طلب أن يخرج جميع الحاضرين لينفرد بإخوته، أيقن الإخوة أنه سيصدر قراراً خطيراً.. فهل سيأمر بإعدام بنيامين؟ أم ماذا بالضبط؟

ولكن ما حدث كان أبعد من أبعد تصوراتهم.. فما أن خرج المصريون حتى أجهش سيد مصر كلها بالبكاء!.. بكاء عالى الصوت لم تستطع الأبواب المغلقة أن تمنع المصريين فى الخارج أن يسمعوه، وفتح فاه ليكلمهم بلغتهم قائلاً آخر كلمات توقعوا أن يسمعوها "أَنَا يُوسُفُ. أَحْيِ أَبِي بَعْدُ؟"

وارتاع الإخوة ووقفوا واجمين مشدوهين*.. وبينما انفجرت أسارير بنيامين متلهلاً بأجمل خبر يمكن أن يسمعه.. ارتاع الإخوة العشرة ظانين أن لحظة العقاب قد حانت.. وأن كل ما سبقها من أحداث عجيبة كانت نوعاً من اللهو الذى تمارسه القطة مع الفأر قبل أن تلتهمه.. ولم يستطع أى منهم أن

*خوف الإخوة يذكرنا برعب اليهود عندما سمعوا بقيامه السيد المسيح لأن يوسف فى نظرهم كان ميتاً فعاش.

ينطق بكلمة أو يعطيه جواباً يطمئنه على حياة أبيه.. وإزاء ذلك الصمت الرهيب من جهتهم بادر يوسف ليطمئنهم كما سنرى.

يوسف يطمئن إخوته ويشرح لهم خطة الله

"فَقَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ: "تَقَدَّمُوا إِلَيَّ". فَتَقَدَّمُوا. فَقَالَ: "أَنَا يُوسُفُ إِخْوَكُمُ الَّذِي بَعَثْتُمُوهُ إِلَى مِصْرَ. وَالآنَ لَا تَتَأَسَّفُوا وَلَا تَغْتَاطُوا لِأَنَّكُمْ بَعَثْتُمُونِي إِلَى هُنَا لِأَنَّهُ لِاسْتِبْقَاءِ حَيَاةِ أُرْسَلَنِي اللَّهُ قَدَامَكُمْ. لِأَنَّ لِلْجُوعِ فِي الْأَرْضِ الْآنَ سَنَتَيْنِ*. وَخَمْسُ سِنِينَ أَيْضًا لَا تَكُونُ فِيهَا فَلَاحَةٌ وَلَا حَصَادٌ. فَقَدْ أُرْسَلَنِي اللَّهُ قَدَامَكُمْ لِجَعَلِ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الْأَرْضِ وَلِيَسْتَبْقِيَ لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً. فَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ أُرْسَلْتُمُونِي إِلَى هُنَا بَلَّ اللَّهُ. وَهُوَ قَدْ جَعَلَنِي أَبًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمَتَّسَلِّطًا عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ." (تك ٤٥ : ٤ - ٨)

بعد لحظات قصيرة - بدت كالدهر في أعين الإخوة - طلب يوسف من إخوته أن يتقدموا إليه لأنهم كانوا خائفين جداً.. وهذا ما يفعله معنا الله في القداس الإلهي حينما نسمع "تقدموا تقدموا على هذا الرسم".. فنحن نخاف أن نتقدم ونقترب من الله بسبب خطايانا لكن الله يقبلنا وينسى لنا خطايانا حينما نتوب.

ما أطيب قلب يوسف!.. فهو لم يسامحهم فقط بل كان حريصاً أيضاً ألا يبقى في نفوسهم شيء من الشعور بالذنب ينغص حياتهم.. فطلب منهم ألا يتأسفوا وألا يغتاطوا، بل زاد على ذلك بشرح أن الله استخدم كل ما حدث للخير "لأنه لاستبقاء حياة أُرْسَلَنِي اللَّهُ قَدَامَكُمْ".

ما أشبهك يا يوسف برب المجد يسوع الذي يقبل الخطاة بمجرد أن يرجعوا تائبين.. ويتركوا طرقهم الرديئة فيقول لهم "قَدْ مَحَوْتُ كَعِيمَ دُنُوبِكَ

* كان عمر يوسف في هذا الوقت ٣٩ سنة. وتفصيلها كالتالي (كان ابن ١٧ سنة عندما أُلقي في البئر + ١٣ سنة في مصر ما بين العبودية والسجن حتى أصبح الرجل الثاني في مصر + ٧ سنوات التي هي سنوات الشبع + سنتين من سنوات المجاعة) أي أن يعقوب لم يرَ ابنه يوسف لمدة ٢٢ سنة كاملة.

وَكَسَّابَةَ خَطَايَاكَ." (إش ٤٤ : ٢٢).. لم يعد للخطية وجود.. الله ينساها.. تبددت كسحابة صيف.. اختفت من الوجود.

هكذا دائماً الإنسان الروحي.. يرى يد الله تعمل فى حياته.. لا يلوم أحداً قط.. حتى أخطاء مَنْ حوله يراها من ترتيب الله! وكيف يستعملها الرب القدير كى تتحول كلها لخير الذين يحبونه.

ما أعمق هذا الإيمان! فَمَنْ منا يدخل السجن ظلماً أو يمر بتجربة قاسية فيقول: "إن الله هو الذى سمح بهذا وليس فلان ولا غيره هو السبب! وما دامت التجربة من يد الله فلا بد أن له غرضاً طيباً من وراء هذا - لا أفهمه الآن - ولكن سأفهمه فيما بعد".

وهذا يرينا أن الله يستخدم حياتنا بكل أحداثها - حتى ما يبدو منها مؤلماً - وذلك من أجل الحياة الأبدية لنا ولمن حولنا.. ففى كل حدث من أحداث حياتنا ليتنا نقول مع يوسف الصديق البار "لأنه لاستيقاء حياة أرسلني الله فدامكم".

يوسف يطلب من إخوته أن يذهبوا ويأتوا بأبيهم

"أَسْرِعُوا وَاصْعِدُوا إِلَى أَبِي وَقُولُوا لَهُ: هَكَذَا يَقُولُ ابْنُكَ يُوسُفُ: قَدْ جَعَلَنِي اللَّهُ سَيِّدًا لِكُلِّ مِصْرَ. انْزِلْ إِلَيَّ. لَا تَقِفْ. فَتَسْكُنْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ وَتَكُونَ قَرِيبًا مِنِّي أَنْتَ وَبَنُوكَ وَبَنُو بَنِيكَ وَغَنَمُكَ وَبَقْرُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ. وَأَعُولُكَ هُنَاكَ لِأَنَّهُ يَكُونُ أَيْضًا خَمْسُ سِنِينَ جُوعًا. لِنَا تَقْتَفِرَ أَنْتَ وَبَيْتُكَ وَكُلُّ مَا لَكَ. وَهُودَا عِيُونُكُمْ تَرَى وَعَيْنَا أَخِي بَنِيَامِينَ أَنَّ فَمِي هُوَ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ. وَتُخْبِرُونَ أَبِي بِكُلِّ مَجْدِي فِي مِصْرَ وَبِكُلِّ مَا رَأَيْتُمْ وَتَسْتَعْجِلُونَ وَتَنْزِلُونَ بِأَبِي إِلَى هُنَا". ثُمَّ وَقَعَ عَلَى عُنُقِ بَنِيَامِينَ أَخِيهِ وَبَكَى. وَبَكَى بَنِيَامِينَ عَلَى عُنُقِهِ. وَقَبَّلَ جَمِيعَ إِخْوَتِهِ وَبَكَى عَلَيْهِمْ. وَبَعْدَ ذَلِكَ تَكَلَّمَ إِخْوَتَهُ مَعَهُ." (تك ٤٥ : ٩ - ١٥)

طلب يوسف من إخوته أن يسرعوا ويصعدوا ليحضروا أباه لأنه ينتظره بفارغ الصبر لكى يعيش فى مصر فى أرض جاسان فى شرق مصر.. هو وبنوه ومواشيه وأغنامه لأن المجاعة ستستمر خمس سنوات أخرى.

ما أجمل طلب يوسف "أَسْرِعُوا وَاصْعِدُوا إِلَى أَبِي" .. طالما تبتّم فأصعدوا لنشعب بأبينا الذي تمرر طويلاً بسبب خطايانا.. هكذا التوبة يعقبها دائماً صعود ورجوع لله.

ثم احتضن أخاه بنيامين باكياً وأخذ يقبله مع جميع إخوته.. قدّم الغفران للكل.. حتى لمن أرادوا أن يقتلوه بأيديهم لولا شفاعته رأوبين الذي اقترح إلقاءه في البئر.. قدم غفراناً لمن باعوه عبداً!.. وبعد هذا بدأ إخوة يوسف يتكلمون.. بعد صدمة التعرف عليه.

فرعون يرسل إخوة يوسف

"وَسَمِعَ الْخَبْرَ فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَقِيلَ: "جَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ". فَحَسُنَ فِي عَيْنِي فِرْعَوْنَ وَفِي عْيُونِ عِبِيدِهِ. فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: "قُلْ لِإِخْوَتِكَ: افْعَلُوا هَذَا. حَمَلُوا دَوَابِّكُمْ وَأَنْطَلِقُوا اذْهَبُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ. وَخُذُوا أَبَاكُمْ وَبِيُوتَكُمْ وَتَعَالُوا إِلَيَّ. فَأَعْطِيكُمْ خَيْرَاتِ أَرْضِ مِصْرَ وَتَأْكُلُوا دَسَمَ الْأَرْضِ. فَأَنْتَ قَدْ أَمَرْتَ. افْعَلُوا هَذَا. خُذُوا لَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ عَجَلَاتٍ لِأَوْلَادِكُمْ وَنِسَائِكُمْ وَأَحْمِلُوا أَبَاكُمْ وَتَعَالُوا. وَلَا تَخْزَنَ عْيُونُكُمْ عَلَى أَثَاتِكُمْ لِأَنَّ خَيْرَاتِ جَمِيعِ أَرْضِ مِصْرَ لَكُمْ" (تك ٤٥ : ١٦ - ٢٠)

عندما سمع فرعون بقدم إخوة يوسف أراد أن يكرمهم لأجل يوسف - رغم أن المصريين يحتقرون العبرانيين - وأصدر أمراً ليوسف - لأول مرة - لكن هذا الأمر كان في حقيقته مجاملة ليوسف بأن يأخذ إخوته عجلات (عربات تجرها الخيل) ويأتون بأبيهم وأولادهم ولا يحزنون على ما يتركونه من أثاث في أرض كنعان لأنهم سيتمتعون بخيرات مصر.

وكثيراً ما كانت مصر هي الملجأ الآمن لشعب الله في وقت الجوع ووقت الخطر.. بشرط أن يكون النزول إليها بموافقة الله أولاً كما نرى في هذه القصة، وكما ظهر ملاك الرب ليوسف النجار في حلم وطلب منه "قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاهْرُبْ إِلَى مِصْرَ، وَكُنْ هُنَاكَ حَتَّى أَقُولَ لَكَ" (مت ٢ : ١٣).. وليس بدون إذن الله كما فعل أبونا إبراهيم (تك ١٢ : ١٠).. أو كما فعل بنو إسرائيل بعد السبي (إر ٤٣ : ٢)..

إخوة يوسف يذهبون لإحضار أبيهم

"فَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ هَكَذَا. وَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ عَجَلَاتٍ بِحَسَبِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ. وَأَعْطَاهُمْ زَادًا لِلطَّرِيقِ. وَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ حُلَّ ثِيَابٍ. وَأَمَّا بَنِيَامِينَ فَأَعْطَاهُ ثَلَاثَ مِئَةٍ مِنَ الْفِضَّةِ وَخَمْسَ حُلَّ ثِيَابٍ. وَأَرْسَلَ لِأَبِيهِ عَشْرَةَ حَمِيرٍ حَامِلَةٍ مِنْ خَيْرَاتِ مِصْرَ وَعَشْرَ أَثْنِ حَامِلَةٍ حِنْطَةً وَخُبْزًا وَطَعَامًا لِأَبِيهِ لِأَجْلِ الطَّرِيقِ. ثُمَّ صَرَفَ إِخْوَتَهُ فَأَنْطَلَقُوا وَقَالَ لَهُمْ: "لَا تَتَغَاضَبُوا فِي الطَّرِيقِ" (تك ٤٥ : ٢١ - ٢٤)

وهنا نجد رمزاً لعطية الله للإنسان التائب فيعطيه بلا حساب.. يعطيه طعاماً وثياباً وفضة.. هذه كلها تزداد لنا طالما طلبنا ملكوت الله وبره.

ثم نجد تحذيراً من الله للتائب، فيقول له "لَا تَتَغَاضَبُوا فِي الطَّرِيقِ" وهي تذكرنا بما قاله للمفلوج بعد شفائه "هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ فَلَا تُخْطِئْ أَيْضًا لِنَا يَكُونَ لَكَ أَشْرٌ" (يو ٥ : ١٤).. لأن الإنسان بعدما يتوب ويأخذ خيراً كثيراً يكتف الشيطان حروب البغضة والغيرة والأنانية.. وكأن الله يقول لنا "أحبوا بعضكم بعضاً أما الخير والسماء والأبدية فهي عطايا مجانية من الله، فقط أحبوا بعضكم بعضاً".

ولكن لماذا توقع يوسف أن يتغاضبوا في الطريق؟

لأن سؤالاً عسيراً كان عليهم أن يجيبوا أباهم عنه، بل ويجيبوا بنيامين أيضاً.. ما هي حقيقة القميص المخضب بالدماء؟.. كيف نجا يوسف من الوحش؟.. وإن لم يكن وحش مفترس قد تعرض له.. فكيف عثرت على قميصه ملوثاً بالدماء؟.. كيف وصل يوسف لهذا المنصب؟.. وماذا فعلت به الأيام طوال تلك السنين؟

في الحقيقة، فإن الوحي المقدس لم يخبرنا كيف واجه الإخوة أباهم بحقيقة ما حدث.. ولكن لا بد أن يعقوب قد عرف الحقيقة كاملة سواء منهم أو من يوسف فيما بعد.. وحتى إن كان قد لازم الصمت ولم يعاتبهم.. فلا شك أن عينيه قد قالت لهم "كيف هان عليكم أن تتركوني أذرف الدمع الغزير كل تلك السنين دون أن تجفوه بذكر الحقيقة؟".. ولا شك أيضاً أنهم تمنوا وقتها أن تسقط الجبال عليهم حتى لا يواجهوا ذلك الموقف.

يعقوب يكتشف أن ابنه حي بعد ٢٢ سنة

"فَصَعِدُوا مِنْ مِصْرَ وَجَاءُوا إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ إِلَى يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. وَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: "يُوسُفُ حَيٌّ بَعْدَ وَهُوَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ!" فَجَمَدَ قَلْبُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ. ثُمَّ كَلَّمُوهُ بِكُلِّ كَلَامٍ يُوسُفُ الَّذِي كَلَّمَهُمْ بِهِ وَأَبْصَرَ الْعَجَلَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لِتَحْمِلَهُ. فَعَاشَتْ رُوحَ يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ. فَقَالَ إِسْرَائِيلُ: "كَفَى!.. يُوسُفُ ابْنِي حَيٌّ بَعْدَ. أَذْهَبُ وَأَرَاهُ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ" (تك ٤٥ : ٢٥ - ٢٨)

لم يصدق يعقوب أن يوسف حي بعد ٢٢ سنة لم تجف فيها دموعه.. ولكنه لما رأى العربات المحملة بخيرات مصر والتي أرسلها يوسف لتحمله صدق.. ويقول الكتاب "فَعَاشَتْ رُوحَ يَعْقُوبَ أَبِيهِمْ" كأنه يريد أن يقول أن يعقوب لم يعيش منذ فقدان يوسف.. ثم قال أنه لا يريد شيئاً آخر غير أن يرى ابنه يوسف وكفى ويموت بعدها.. وفي هذا يشبه يعقوب سمعان الشيخ عندما رأى الطفل يسوع وحمله على ذراعيه وقال "الآن تُطَلِّقُ عَبْدَكَ يَا سَيِّدُ حَسَبَ قَوْلِكَ بِسَلَامٍ. لِأَنَّ عَيْنِي قَدْ أَبْصَرْتُ خَلَاصَكَ. الَّذِي أَعْدَدْتَهُ قَدَامَ وَجْهِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ" (لو ٢ : ٢٩ - ٣١).

الرب يظهر ليعقوب ويوافق على نزوله لمصر

"فَارْتَحَلَ إِسْرَائِيلُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ وَآتَى إِلَى بَنُرِ سَبْعَ وَدَبَّحَ دُبَائِحَ لِإِلَهِ أَبِيهِ إِسْحَاقَ. فَكَلَّمَ اللَّهُ إِسْرَائِيلَ فِي رُؤْيِ اللَّيْلِ وَقَالَ: "يَعْقُوبُ يَعْقُوبُ". فَقَالَ: "هَنَذَا". فَقَالَ: "أَنَا اللَّهُ إِلَهُ أَبِيكَ. لَا تَخَفْ مِنَ النَّزُولِ إِلَى مِصْرَ لِأَنِّي أَجْعَلُكَ أُمَّةً عَظِيمَةً هُنَاكَ. أَنَا أَنْزَلُ مَعَكَ إِلَى مِصْرَ وَأَنَا أَصْغِدُكَ أَيْضًا. وَيَضَعُ يُوسُفُ يَدَهُ عَلَى عَيْنَيْكَ". فَقَامَ يَعْقُوبُ مِنْ بَنُرِ سَبْعَ. وَحَمَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ أَبَاهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ فِي الْعَجَلَاتِ الَّتِي أَرْسَلَ فِرْعَوْنُ لِحِمْلِهِ. وَأَخَذُوا مَوَاشِيَهُمْ وَمَقْتَنَاهُمْ الَّذِي اقْتَنَوْا فِي أَرْضِ كَنْعَانَ وَجَاءُوا إِلَى مِصْرَ. يَعْقُوبُ وَكُلُّ نَسْلِهِ مَعَهُ. بَنُوهُ وَبَنُو بَنِيهِ مَعَهُ وَبَنَاتُهُ وَبَنَاتُ بَنِيهِ وَكُلُّ نَسْلِهِ جَاءَ بِهِمْ مَعَهُ إِلَى مِصْرَ." (تك ٤٦ : ١ - ٧)

أصبح إسرائيل (يعقوب) شيخاً روحانياً جداً، ففي غمرة لهفته لرؤية ابنه الحبيب يوسف لم ينس أن يشكر الله.. فبنى مذبحاً في بئر سبع وقدم ذبائح لله وكأنه يقول له أرشدني يا رب.. هل أنزل إلى مصر أم لا؟!.. ولذلك كلمه الله في رؤى الليل وأخبره بأنه سيكون معه في مصر وسينزل معه ولن يتركه.

ورغم قوة الدافع للنزول إلى مصر إلا أن يعقوب - بعدما سلك حسب مشيئته الشخصية وأهوائه لعشرات السنين - تعلّم الآن ألا يقدم على أى خطوة فى حياته إلا بعد استئذان الله أولاً والحصول على موافقته.. وكان أبانا يعقوب سمع ربنا يسوع له المجد يقول "مَنْ أَحَبَّ أَباً أَوْ أُمَّ أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي وَمَنْ أَحَبَّ ابناً أَوْ ابنةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي" (مت ١٠ : ٣٧).

وكان الله قد سبق وأنبأ أبانا إبراهيم أن نسله سيتغرب في مصر ٤٠٠ سنة وسيطلقه الله بيد قوية.. "فَقَالَ لِأِبْرَاهِيمَ: اَعْلَمْ يَقِينًا أَنَّ نَسْلَكَ سَيَكُونُ غَرِيبًا فِي أَرْضٍ لَيْسَتْ لَهُمْ، وَيَسْتَعْبُدُونَ لَهُمْ. فَيَذَلُّونَهُمْ أَرْبَعَ مِئَةَ سَنَةٍ. ثُمَّ الْأُمَّةُ الَّتِي يُسْتَعْبَدُونَ لَهَا أَنَا أَدِينُهَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَخْرُجُونَ بِأَمْلَاكِ جَزِيلَةٍ." (تك ١٥ : ١٣ - ١٤) والآن سيتحقق ذلك.. ولذلك قال الله ليعقوب أنا أنزل معك إلى مصر وأنا أصعدك أيضاً.. وهذا الصعود أو الخروج من أرض مصر سيتحقق على يد موسى النبي.

ثم قال له الرب أن يوسف سيضع يده على عينيك، لأن نظر يعقوب كان قد ضعف وسيضع يوسف يده بالبركة على عيني يعقوب إسرائيل.

أسماء بنى إسرائيل الذين نزلوا إلى مصر

"وَهَذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مِصْرَ..... جَمِيعُ نَفُوسِ بَيْتِ يَعْقُوبَ الَّتِي جَاءَتْ إِلَى مِصْرَ سَبْعُونَ" (تك ٤٦ : ٨ - ٢٧)

يذكر الكتاب المقدس أسماء أبناء وبنات يعقوب وعددهم ٦٦ نفساً + ٢ أبناء يوسف (منسى وأفرام) + يوسف + يعقوب فيكون إجمالى الذين نزلوا إلى مصر ٧٠ نفساً.

اللقاء المرتقب بين يعقوب ويوسف

"فَأَرْسَلَ يَهُودًا أَمَامَهُ إِلَى يَوْسُفَ لِيُرِيَ الطَّرِيقَ أَمَامَهُ إِلَى جَاسَانَ ثُمَّ جَاءُوا إِلَى أَرْضِ جَاسَانَ. فَشَدَّ يَوْسُفُ مَرْكَبَتَهُ وَصَعِدَ لاسْتِقْبَالَ إِسْرَائِيلَ أَبِيهِ إِلَى جَاسَانَ. وَلَمَّا ظَهَرَ لَهُ وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا. فَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيَوْسُفَ: "أَمُوتُ الْآنَ بَعْدَ مَا رَأَيْتُ وَجْهَكَ أَنْكَ حَيًّا بَعْدُ". ثُمَّ قَالَ يَوْسُفُ لِإِخْوَتِهِ وَلِبَيْتِ أَبِيهِ: "أَصْعِدُوا وَأَخْبِرُوا فِرْعَوْنَ وَأَقُولُ لَهُ: إِخْوَتِي وَبَيْتُ أَبِي الَّذِينَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ جَاءُوا إِلَيَّ. وَالرَّجَالُ رِعَاةٌ عَنَّمِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ مَوَاشٍ وَقَدْ جَاءُوا بَعْنَمِهِمْ وَيَقْرَهُمْ وَكُلُّ مَا لَهُمْ. فَيَكُونُ إِذَا دَعَاكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَالَ: مَا صِنَاعَتُكُمْ؟ أَنْ تَقُولُوا: عِبِيدُكُمْ أَهْلُ مَوَاشٍ مُنْذُ صِبْيَانَا إِلَى الْآنَ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا جَمِيعًا. لِكَيْ تَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جَاسَانَ. لِأَنَّ كُلَّ رَاعِي عَنَمٍ رَجَسٌ لِلْمِصْرِيِّينَ" (تك ٤٦ : ٢٨ - ٣٤)

تقدم يهوذا الركب ليخبر يوسف بمجيء أبيه، ثم كان المشهد المؤثر للقاء يوسف بأبيه ذلك المشهد الذي يعجز أبرع الأدباء عن وصفه.. ولكن الوحي المقدس يصفه بكلمات قصيرة وبليلة إذ يقول "وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَبَكَى عَلَى عُنُقِهِ زَمَانًا" هذه الكلمات المؤثرة تصف لقاءً يصعب أن يتكرر عبر تاريخ البشرية.. فبالنسبة ليعقوب كان يوسف هو "ابنه الذي كان ميتاً فعاش" وبذلك ذاق يعقوب طعم قيامة الأموات في رؤية يوسف. ونجد أن تعبير "وَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ" هو نفسه التعبير الذي ذكره الرب يسوع في مثل الابن الضال "فَقَامَ وَجَاءَ إِلَى أَبِيهِ. وَإِذْ كَانَ لَمْ يَزَلْ بَعِيداً رَأَهُ أَبُوهُ فَتَحَنَّنَ وَرَكَضَ وَوَقَعَ عَلَى عُنُقِهِ وَقَبَّلَهُ" (لو ١٥ : ٢٠).

وهنا التركيز على طعم قيامة الأموات التي حققها الرب بقيامته من الأموات في اليوم الثالث.. وذاقها يعقوب في ابنه يوسف.. ويذوقها كل خاطئ يتوب عن خطاياها.

ثم أخبر يوسف أسرته أنه سيذهب ليخبر فرعون بقدمهم.. وأوصاهم أن يخبروا فرعون أنهم رعاة ليرسلهم إلى أرض جاسان ليعيشوا فيها بعيداً عن المصريين الذين لا يعملون بالرعي لأنهم يعتبرون الزراعة مهنة أرقى.. أما الرعي فهو في نظرهم مهنة العبيد.

يوسف يقدم أسرته لفرعون

"فَأَتَى يُوسُفُ وَقَالَ لِفِرْعَوْنَ: "أَبِي وَإِخْوَتِي وَعَتَمَهُمْ وَبَقَرَهُمْ وَكُلُّ مَا لَهُمْ جَاءُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ. وَهُوَذَا هُمْ فِي أَرْضِ جَاسَانَ". وَأَخَذَ مِنْ جُمْلَةِ إِخْوَتِهِ خَمْسَةَ رِجَالٍ وَأَوْقَفَهُمْ أَمَامَ فِرْعَوْنَ. فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِإِخْوَتِهِ: "مَا صَنَعْتُمْ؟" فَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: "عَبِيدُكَ رُعَاةُ غَنَمٍ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا جَمِيعًا". وَقَالُوا لِفِرْعَوْنَ: "جِنَانًا لِنَتَّعَرَّبَ فِي الْأَرْضِ إِذْ لَيْسَ لِعَنَمِ عَبِيدِكَ مَرْعَى لِأَنَّ الْجُوعَ شَدِيدٌ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَالآنَ لَيْسَ لِعَنَمِ عَبِيدِكَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ". فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: "أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ. أَرْضُ مِصْرَ قَدَامَكَ. فِي أَفْضَلِ الْأَرْضِ أَسْكُنْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ. لَيْسَ لِعَنَمِ فِي أَرْضِ جَاسَانَ. وَإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهُمْ دَوُو فَدَرَةٍ فَاجْعَلُهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ عَلَى الَّتِي لِي". ثُمَّ ادْخَلَ يُوسُفُ يَعْقُوبَ أَبَاهُ وَأَوْقَفَهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ. وَبَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ. فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِيَعْقُوبَ: "كَمْ هِيَ أَيَّامُ سِنِي حَيَاتِكَ؟" فَقَالَ يَعْقُوبُ لِفِرْعَوْنَ: "أَيَّامُ سِنِي غُرْبَتِي مِئَةٌ وَتَلَاثُونَ سَنَةً. قَلِيلَةٌ وَرَدِيَّةٌ كَانَتْ أَيَّامُ سِنِي حَيَاتِي وَلَمْ تَبْلُغْ إِلَى أَيَّامِ سِنِي حَيَاةِ آبَائِي فِي أَيَّامِ غُرْبَتِهِمْ". وَبَارَكَ يَعْقُوبُ فِرْعَوْنَ وَخَرَجَ مِنْ لَدُنْ فِرْعَوْنَ." (تك ٤٧ : ١ - ١٠)

هنا نرى فضيلة جميلة أخرى في يوسف رئيس الوزراء الذي لا يستحي بأبيه وإخوته، فرغم أن المصريين يحتقرون العبرانيين رعاة الغنم إلا أنه أخذهم أمام فرعون.

وقد كان يعقوب عجوزاً فقد بصره ويعرج على قدمه منذ أن صارعه الله وضرب حُق فخذيه.. وهذا ما يفعله معنا المسيح - له المجد - فلا يخجل أن يطلق علينا إخوته "مِنْ تَمَّ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُشْبِهَ إِخْوَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لِكَيْ يَكُونَ رَحِيمًا، وَرَبِّيسَ كَهَنَةٍ أَمِينًا فِي مَا لِلَّهِ حَتَّى يُكْفَرَ خَطَايَا الشَّعْبِ" (عب ٢ : ١٧).

ثم نلاحظ أمراً غريباً، وهو أن يعقوب يُبارك فرعون لأن البركة لدى يعقوب رجل الله الشيخ البسيط وليست لدى فرعون ملك مصر.. فيعقوب حصل على البركة من الله بيد آبائه إبراهيم وإسحاق حتى وصلت إليه.

ونلاحظ أيضاً أن فرعون احترام سن يعقوب وسأله عنه.. وأجاب يعقوب أن سنى حياته ١٣٠ سنة قليلة بالنسبة لأبائه.. حيث مات إبراهيم وعمره

١٧٥ سنة ومات إسحاق وعمره ١٨٠ سنة.. كما قال أيضاً أنها رديّة لأن حياة يعقوب مليئة بالتعب والشقاء والمرارة أكثر من حياة إبراهيم وإسحاق..

- فراحيل زوجته المحبوبة ماتت وهى تلد بنيامين.
- ورأوبين ابنه البكر عاشر بلهة زوجته، جارية راحيل.
- وابنته دينة نجسها شكيم فقام شمعون ولاوي بقتله هو وأهله.
- وابنه يهوذا أساء لسمعة بيت يعقوب عندما عاشر ثامار زوجة ابنه.
- واستمر يعقوب ما يقرب من ٢٢ سنة يبكى على ابنه يوسف.

كما نجد فى رد يعقوب على فرعون عبارة جميلة هى "أَيَّامُ سِنِي غُرْبَتِي" ولم يقل أيام عمرى لأن الآباء الأوائل إبراهيم وإسحاق ويعقوب هم الذين علمونا معنى الغربة وأن حياتنا على الأرض مهما طالت فهى أيام غربة نعود بعدها إلى وطننا السماء.

ونجد نفس هذا المعنى يركز عليه بولس الرسول فى رسالته للعبرانيين الأصحاح ١١ ويقول أن الآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب سكنوا فى خيام لآخر عمرهم ليبقوا غرباء ورفضوا أن يستقروا فى أى أرض لأن إستقرارهم فى السماء.. "بِالْإِيمَانِ تَغْرَبَ فِي أَرْضِ الْمَوْعِدِ كَأَنَّهَا غَرْبِيَّةٌ، سَاكِنًا فِي خِيَامٍ مَعَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ الْوَارِثَيْنِ مَعَهُ لِهَذَا الْمَوْعِدِ عَلَيْهِ. لِأَنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ الْمَدِينَةَ الَّتِي لَهَا الْأَسَاسَاتُ، الَّتِي صَانِعُهَا وَبَارِئُهَا اللَّهُ." (عب ١١: ٩ - ١٠).

يعقوب يستحلف يوسف أن يدفنه فى كنعان

"وَسَكَنَ إِسْرَائِيلُ فِي أَرْضِ مِصْرَ فِي أَرْضِ جَاسَانَ، وَتَمَلَّكَوا فِيهَا وَاتَّمَرُوا وَكَثُرُوا جَدًّا. وَعَاشَ يَعْقُوبُ فِي أَرْضِ مِصْرَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً. فَكَانَتْ أَيَّامُ يَعْقُوبَ، سِتُّو حَيَاتِهِ مِئَةً وَسَبْعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً. وَلَمَّا قَرُبَتْ أَيَّامُ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَمُوتَ دَعَا ابْنَهُ يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «إِنَّ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَضَعُ يَدَكَ تَحْتِ فُخْذِي وَاصْنَعْ مَعِيَ مَعْرُوفًا وَأَمَانَةً: لَا تَدْفِنِي فِي مِصْرَ، بَلْ اضْطَجِعْ مَعَ آبَائِي، فَتَحْمِلْنِي مِنْ مِصْرَ وَتَدْفِنْنِي فِي مَقْبَرَتِهِمْ». فَقَالَ: «أَنَا أَفْعَلُ بِحَسَبِ

قَوْلِكَ». فَقَالَ: «أَحْلِفْ لِي». فَحَلَفَ لَهُ. فَسَجَدَ إِسْرَائِيلُ عَلَى رَأْسِ السَّرِيرِ." (تك ٤٧ : ٢٧ - ٣١).

عاش يعقوب في مصر مع يوسف ١٧ سنة كاملة، وهو نفس عدد السنين التي عاشها معه قبل أن يبيعه إخوته، وكان الرب يعوضه بالتمام عن السنين التي أكلها الجراد.

ورغم أن يعقوب كان قد شاخ جداً حتى أصبح السجود عسيراً إلا أن محبته للسجود أمام الله القدير جعله يتحامل على نفسه ليسجد على رأس السرير.. ولأهمية هذا الحدث يعود معلمنا بولس الرسول ويذكرنا به في رسالة العبرانيين (عب ١١ : ٢١).

ونتأمل قليلاً في السجود عند أبائنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب فنجدهم يحبون السجود أمام الله كثيراً.. فكل طلبة من الله يسبقها أو يعقبها سجود لله..

ويحكي التاريخ قصة يعقوب الرسول تلميذ المسيح له المجد وكاتب رسالة يعقوب (وليس يعقوب إسرائيل) أن ركبتيه كانتا كخف الجمل من كثرة السجود.. وفي آخر حياته عندما رجمه اليهود وجدوا أنه مات وجسده في وضع السجود.. فقد اعتاد جسده على هذا الوضع.

ورغم كل الخيرات التي يتمتع بها يعقوب هو وبنوه في مصر، إلا أنه لم ينسَ قط أن كنعان هي وطنه السماوى.. وأن كل خيرات مصر لا تجعله ينسى أن مملكته ليست من هذا العالم.. لذا يستحلف ابنه ألا يدفنه في مصر.. بل يدفنه مع أبيه إسحاق وإبراهيم جده في كنعان.

يعقوب يعطى يوسف نصيباً ضعفاً نصيب إخوته

"وَحَدَّثَتْ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّهُ قِيلَ لِيُوسُفَ: "هُوَذَا أَبُوكَ مَرِيضٌ". فَأَخَذَ مَعَهُ ابْنِيهِ مَنَسَّى وَأَفْرَايِمَ. فَأَخْبَرَ يَعْقُوبَ وَقِيلَ لَهُ: "هُوَذَا ابْنُكَ يُوسُفُ قَادِمٌ إِلَيْكَ". فَتَشَدَّدَ إِسْرَائِيلُ وَجَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ. وَقَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ: "اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ظَهَرَ لِي فِي لُوزٍ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ وَبَارَكَنِي. وَقَالَ لِي: هَا أَنَا أَجْعَلُكَ مُثْمِراً

وَأَكْثَرَكَ وَأَجْعَلَكَ جُمُهوراً مِنَ الأَمَمِ وَأَعْطِي تَسْلِكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِكَ مُلكاً أَبدياً.

وَالآنَ ابْنَكَ المَوْلُودَانَ لَكَ فِي أَرْضِ مِصرَ قَبْلَمَا أَتَيْتُ إِلَيْكَ إِلَى مِصرَ هُمَا لِي. أَفْرَيمُ وَمَنْسَى كَرَأوْبِينَ وَشَمْعُونَ يَكُونانَ لِي. وَأَمَّا أَوْلادُكَ الَّذِينَ تَلِدُ بَعْدَهُمَا فَيَكُونُونَ لَكَ. عَلَى اسْمِ إِخْوِيهِمْ يُسَمُّونَ فِي تَصْيِيهِمْ. وَأَنَا حِينَ جِئْتُ مِنْ فِدَانَ مَاتَتْ عِنْدِي رَاحيلُ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ فِي الطَّرِيقِ إِذْ بَقِيَتْ مَسَافَةً مِنَ الأَرْضِ حَتَّى آتَى إِلَى أَفْرَاطَةَ. فَدَفَنْتُهَا هُنَاكَ فِي طَرِيقِ أَفْرَاطَةَ " (تك ٤٨ : ١ - ٧)

مرض يعقوب وعرف يوسف بمرض أبيه.. فأخذ ابنه منسى وأفرايم وذهب لأبيه وأخبر يعقوب بقدم يوسف فتشدد - أى بصعوبة جلس على السرير - مما يدل على أن صحة يعقوب كانت قد تدهورت جداً.

استعد يعقوب ليعطي البركة لنسل يوسف.. فبدأ يقص عليه كيف أن الله باركه في لوز في الليلة التي صارعه فيها وقال يعقوب لله "لَا أَطْلُفَكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي" (تك ٣٢ : ٢٦).. وباركه الله وقال له "هَا أَنَا أَجْعَلُكَ مُثْمِراً وَأَكْثَرَكَ وَأَجْعَلَكَ جُمُهوراً مِنَ الأَمَمِ وَأَعْطِي تَسْلِكَ هَذِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِكَ مُلكاً أَبدياً" (تك ٤٨ : ٤).. وهنا إشارة للكنيسة التي ستنتال أرض الموعد الحقيقية أورشليم السماوية ملكاً أبدياً.

ثم أوصى يعقوب أن يأخذ يوسف نصيباً ضعف إخوته، وذلك بأن يصبح لكل من منسى وأفرايم ابنه سبطاً باسمه.. لأن هذا هو أقل تعويض ليوسف الذي ظل أميناً رغم ظلم إخوته ورغم الظروف القاسية التي تعرض لها بموت راحيل أمه ودفنها في بيت لحم بمنطقة أفراطة وهو طفل دون العاشرة.

يوسف يسجد أمام يعقوب أبيه

"وَرَأَى إِسْرَائِيلُ ابْنَ يُوْسُفَ فَقَالَ: "مَنْ هَذَا؟". فَقَالَ يُوْسُفُ لِأَبِيهِ: "هُمَا ابْنَايَ اللَّذَانِ أَعْطَانِي اللهُ هَهُنَا". فَقَالَ: "قَدَّمَهُمَا إِلَيَّ لِأَبَارِكَهُمَا". وَأَمَّا عَيْنَا إِسْرَائِيلَ فَكَانَتَا قَدْ ثَقَلَتَا مِنَ الشَّيْخُوخَةِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُبْصِرَ فَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا

وَاحْتَضَنَهُمَا. وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنِّي أَرَى وَجْهَكَ وَهُوَذَا اللَّهُ قَدْ
أَرَانِي تَسْلُكَ أَيْضًا. ثُمَّ أَخْرَجَهُمَا يُوسُفُ مِنْ بَيْنِ رُكْبَتَيْهِ وَسَجَدَ أَمَامَ وَجْهِهِ إِلَى
الْأَرْضِ. " (تك ٤٨ : ٨ - ١٢)

لأن نظر يعقوب كان قد ضعف فقد سأل يوسف عن ابنيه.. فأخبره
يوسف أنهما ولديه منسى وأفرايم اللذان رُزقا بهما في مصر.. فقبلهما يعقوب
واحتضنهما.. وقال ليوسف أن الله أعطاه أكثر مما يتمنى.. فقد كانت أقصى
أمانيه أن يراه ولكن الله أنعم عليه أكثر وأكثر فرأى ابنيه أيضاً.. ورجم عظمة
مركز يوسف إلا أنه لم يستتكف أن يسجد أمام أبيه يعقوب احتراماً له.

يعقوب يبارك ابني يوسف على مثال الصليب

"وَأَخَذَ يُوسُفُ الْاِثْنَيْنِ أَفْرَائِمَ بِيَمِينِهِ عَن يَسَارِ إِسْرَائِيلَ وَمَنْسَى بِيَسَارِهِ عَن
يَمِينِ إِسْرَائِيلَ وَقَرَّبَهُمَا إِلَيْهِ. فَمَدَّ إِسْرَائِيلُ يَمِينَهُ وَوَضَعَهَا عَلَى رَأْسِ أَفْرَائِمَ
وَهُوَ الصَّغِيرُ وَيَسَارَهُ عَلَى رَأْسِ مَنْسَى. وَضَعَ يَدَيْهِ بِفُطْنَةٍ فَإِنَّ مَنْسَى كَانَ
الْبِكْرَ. وَبَارَكَ يُوسُفَ وَقَالَ: "اللَّهُ الَّذِي سَارَ أَمَامَهُ أَبُوَايَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ اللَّهُ
الَّذِي رَعَانِي مِنْذُ وُجُودِي إِلَى هَذَا الْيَوْمِ. الْمَلَكُ الَّذِي خَلَّصَنِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ يُبَارِكُ
الْعُلَمَاءَ. وَلْيُدْعَ عَلَيْهِمَا اسْمِي وَأَسْمُ أَبُوَايَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ. وَلْيَكْثُرَا كَثِيرًا فِي
الْأَرْضِ".

فَلَمَّا رَأَى يُوسُفُ أَنَّ أَبَاهُ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِ أَفْرَائِمَ سَاءَ ذَلِكَ فِي عَيْنَيْهِ
فَامْسَكَ بِيَدِ أَبِيهِ لِيَنْقُلَهَا عَن رَأْسِ أَفْرَائِمَ إِلَى رَأْسِ مَنْسَى. وَقَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ:
"لَيْسَ هَكَذَا يَا أَبِي لِأَنَّ هَذَا هُوَ الْبِكْرُ. ضَعْ يَمِينَكَ عَلَى رَأْسِهِ". فَأَبَى أَبُوهُ وَقَالَ:
"عَلِمْتُ يَا ابْنِي عَلِمْتُ! هُوَ أَيْضًا يَكُونُ شَعْبًا وَهُوَ أَيْضًا يَصِيرُ كَبِيرًا. وَلَكِنَّ أَخَاهُ
الصَّغِيرَ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهُ وَسَلُّهُ يَكُونُ جُمْهُورًا مِنَ الْأُمَّمِ". وَبَارَكَهُمَا فِي ذَلِكَ
الْيَوْمِ قَائِلًا: "بِكَ يُبَارَكُ إِسْرَائِيلُ قَائِلًا: يَجْعَلُكَ اللَّهُ كَأَفْرَائِمَ وَكَمَنْسَى". فَقَدَّمَ
أَفْرَائِمَ عَلَى مَنْسَى. " وَقَالَ إِسْرَائِيلُ لِيُوسُفَ: هَا أَنَا أَمُوتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَيَكُونُ
مَعَكُمْ وَيَرُدُّكُمْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكُمْ. وَأَنَا قَدْ وَهَبْتُ لَكَ سَهْمًا وَاحِدًا فَوْقَ إِخْوَتِكَ
أَخَذْتُهُ مِنْ يَدِ الْأُمُورِيِّينَ بِسِيفِي وَقَوْسِي " (تك ٤٨ : ١٣ - ٢٢)

مدَّ يعقوب يديه كمثل صليب ووضع اليمنى على رأس أفرايم الذى يقف على يساره، ووضع يده اليسرى على رأس منسى الذى يقف يمينه.. وضعهما بهذا الشكل بفتنة وفهم.. وعندما أراد يوسف أن يرفع يد يعقوب اليمنى ليضعها على رأس منسى لأنه البكر معتقداً أن يعقوب أبوه لم ينتبه لذلك.. رد عليه يعقوب وقال أنه يعلم ذلك ورفض وضع يده اليمنى على منسى.

والشكل الذى وضع به يعقوب يديه عند مباركته لأفرايم ومنسى ابني يوسف.. هو نفس وضع يدي الكاهن عند اختيار الحمل فى القداس الإلهي.. حيث يضعهما هكذا على شكل الصليب.. ولذا رتبت الكنيسة أن تقرأ هذا الفصل فى نوبات الساعة الثالثة من يوم الجمعة العظيمة من البصخة المقدسة.

وبارك يعقوب أفرايم ومنسى.. ولكن أفرايم له بركة أكثر وكرامة أكثر فى الشعب لأن البركة من الله يعطيها هو لمن يريد.. والبكورية ليست بكورية حرفية إنما البكورية تكون بالقلب الممتلىء بالإيمان وحب الله.

وتتحقق بركة يعقوب لأفرايم فيصبح من أكبر أسباط إسرائيل عدداً وأصبح الدعاء بالبركة فى إسرائيل بأن الله يباركك مثل بركة أفرايم.

ثم أخبر يعقوب يوسف بأنه سيموت قريباً.. ولكن الله سيكون معهم ويردّهم إلى أرض كنعان.. إشارة لخروج شعب إسرائيل من مصر بيد الله الرفيعة القوية على يد موسى النبي.. ثم أخبره بأنه أعطاه نصيباً أكبر من إخوته بالجهاد والحروب التى خاضها.

بعد هذا مضى يعقوب فى طريق الأرض كلها.. وأسلم الروح وانضم إلى قومه.. وتنفيذاً لوصيته صعد يوسف وإخوته ولفيف من عبيد فرعون ليدفنوا يعقوب فى مغارة حقل المكفيلة مع آبائه "حَمَلَهُ بَنُوهُ إِلَى أَرْضِ كَنْعَانَ وَدَفَنُوهُ فِي مَغَارَةِ حَقْلِ الْمَكْفِيلَةِ الَّتِي اشْتَرَاهَا إِبْرَاهِيمُ مَعَ الْحَقْلِ مُلْكَ قَبْرِ مِنْ عَفْرُونَ الْحَنِيِّ أَمَامَ مَمْرًا. ثُمَّ رَجَعَ يُوسُفُ إِلَى مِصْرَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ وَجَمِيعُ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعَهُ لِدَفْنِ أَبِيهِ بَعْدَ مَا دَفِنَ أَبَاهُ" (تك ٥٠ : ١٣ - ١٤).

موت يوسف

بعد ١٧ سنة في مصر ما زال إخوة يوسف يخشون انتقامه

"ثُمَّ رَجَعَ يُوسُفُ إِلَى مِصْرَ هُوَ وَإِخْوَتُهُ وَجَمِيعَ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعَهُ لِدَفْنِ أَبِيهِ بَعْدَ مَادْفَنِ أَبِيهِ. وَلَمَّا رَأَى إِخْوَةَ يُوسُفَ أَنَّ آبَاهُمْ قَدْ مَاتَ قَالُوا: "لَعَلَّ يُوسُفَ يَضْطَهُدُنَا وَيَرُدُّ عَلَيْنَا جَمِيعَ الشَّرِّ الَّذِي صَنَعْنَا بِهِ". فَأَوْصُوا إِلَى يُوسُفَ قَائِلِينَ: "أَبُوكَ أَوْصَى قَبْلَ مَوْتِهِ قَائِلًا: هَكَذَا تَقُولُونَ لِيُوسُفَ: آه! اصْفَحْ عَن ذَنْبِ إِخْوَتِكَ وَخَطِيئَتِهِمْ فَإِنَّهُمْ صَنَعُوا بِكَ شَرًّا. فَلَا أَنْ اصْفَحْ عَن ذَنْبِ عِبِيدِ إِلَهِ أَبِيكَ".

فَبَكَى يُوسُفُ حِينَ كَلَّمُوهُ. وَأَتَى إِخْوَتُهُ أَيْضًا وَوَقَعُوا أَمَامَهُ وَقَالُوا: "هَا نَحْنُ عِبِيدُكَ". فَقَالَ لَهُمْ يُوسُفُ: "لَا تَخَافُوا. لِأَنَّهُ هَلْ أَنَا مَكَانَ اللَّهِ؟ أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ لِي شَرًّا أَمَّا اللَّهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا لِكِيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ لِيُحْيِيَ شَعْبًا كَثِيرًا. فَلَا أَنْ لَا تَخَافُوا. أَنَا أَعُولُكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ". فَعَزَّاهُمْ وَطَيَّبَ قُلُوبَهُمْ. وَسَكَنَ يُوسُفُ فِي مِصْرَ هُوَ وَبَيْتُ أَبِيهِ. (تك: ٥٠: ١٤ - ٢٢)

بعد موت يعقوب.. أى بعد ١٧ سنة من العودة إلى مصر.. أى بعد ٣٩ سنة من الجريمة.. ما زال إخوة يوسف خائفين أن ينتقم أخوهم منهم بعد موت أبيهم.. وكأن ما كان يمنعه هو الحفاظ على مشاعر أبيه وليس تنفيذ وصية الله بالغفران والتسامح.

وهكذا تبقى الخطية دائماً مثيرة للخوف والندم حتى بعد سنين طويلة ويقع صاحبها في فخ "الإسقاط" يتخيل أن الآخرين سيفعلون ما كان هو سيفعله لو تبدلت المراكز.

ونحن أيضاً كثيراً ما نفعل نفس الشيء مع الرب أيضاً.. فنظن أنه سيتخلى عنا في ضيقة أو إمتحان أو مرض أو تجربة لأننا لم نكن أمناء في حياتنا الروحية.. بينما الحقيقية هي أن عدم أمانتنا لا يبطل أمانة الله "إِنْ كُنَّا

غَيْرَ أَمْنَاءَ فَهُوَ يَبْقَى أَمِينًا، لَنْ يَفْئِدَ أَنْ يُنْكَرَ نَفْسَهُ." (٢تى ٢ : ١٣) فالله يتعامل معنا بنفس الحب ونفس الإهتمام والرعاية.. بل لعل الله أحيانا يعطى المزيد من الإهتمام للخاطى تماماً كما تعطى الأم مزيداً من الإهتمام لابنها المريض حتى يُشفى.

أمّا يوسف فكان موقفه مثالياً.. فبقبله النقي بكى * متأثراً من سوء ظنهم واعتقادهم أن تسامحه كان مؤقتاً أو مشروطاً بحياة أبيه.

ولعله قال فى نفسه: وهل كنت انتقمت من امرأة فوطيفار التى زجت بى فى السجن ظلماً حتى أنتقم من إخوتى!؟

لكن تسامح يوسف كان فى الحقيقة مرتبطاً بعلاقته القوية بالله.. وبالمحبة التى انسكبت فى قلبه بالروح القدس، كانت عين يوسف لا ترى إلا عمل الله صانع العجائب الذى يخرج من الجافى حلاوة.. فنسى الشر تماماً وكان غفرانه لإخوته كاملاً.

وقال عبارته الخالدة: "أَنْتُمْ قَصَدْتُمْ بِي شَرًّا أَمَّا اللَّهُ فَقَصَدَ بِهِ خَيْرًا"

تلك العبارة التى استغرقت سنيماً من أحلى سنوات شبابه حتى يفهمها.. أمضاها صابراً على أمل أن يفهم فيما بعد.. وسمح الله له بالفعل أن يرى بعينه كيف تكون مجازاة الأبرار أضعافاً مضاعفة.

كان يرى أن الرب قصد بالشر خيراً.. وهكذا تتحول الآلام دائماً فى يد الله إلى أكاليل وأفراح كما قال يوسف "لِكَيْ يَفْعَلَ كَمَا الْيَوْمَ لِيُحْيِيَ شَعْبًا كَثِيرًا".

* رغم أن يوسف لم يكن ذلك الرجل الذى يبكى بسهولة إلا أن كثرة وعنف الأحداث التى مرت به فى حياته جعلت الكتاب المقدس يذكر ست مرات يبكي فيها:

- ١- أول مرة كانت حين رأى إخوته لأول مرة (تك ٤٢ : ٢٤)
- ٢- حين عاد إخوته ومعهم بنيامين (تك ٤٣ : ٣٠)
- ٣- حين صارح إخوته أنه هو أخوهم (تك ٤٥ : ١٤ - ١٥)
- ٤- حين رأى يعقوب أباه بعد غيبة ٢٢ عاماً (تك ٤٦ : ٢٣)
- ٥- حين وفاة أبيه يعقوب (تك ٥٠ : ١)
- ٦- حين اتهمه إخوته أنه كان ينتظر وفاة أبيهم حتى ينتقم منهم (تك ٥٠ : ١٧)

حتى عندما صلبوا رب المجد.. كان إبليس يسعى محمواً بين يهوذا وقيافا وبيلاطس وهيرودس والجموع التي تهتف كالقطيع اصلبه اصلبه.. قصدوا شراً.. وظن إبليس أنه قد حقق ما أراد.. فإذا مَنْ مات على الصليب قد اقتحم مملكة الجحيم ليخرج منها كل مَنْ رقد على الرجاء.

وأكد أجزم أن كل قارئ يستطيع أن يسترجع من حياته الشخصية أو من تاريخ الكنيسة عشرات المواقف التي قصد بها إبليس وأعوانه شراً.. فحوّل الله الشر إلى خير.

ولعل المتابع لحياة يوسف يرى كيف كان سنده وعزائه في كل ما تعرض له من محن وتجارب هو الثلاث مقولات التي حفظناها جيداً عن قداسة المتنيح البابا شنودة الثالث:

"ربنا موجود ... كله للخير ... مسيرها تنتهي"

موت يوسف

"وَعَاشَ يُوسُفُ مِئَةً وَعَشَرَ سِنِينَ. وَرَأَى يُوسُفُ لِأَفْرَائِمَ أَوْلَادَ الْجِيلِ الثَّلَاثِ. وَأَوْلَادُ مَاكِيرَ بْنِ مَنَسَّى أَيْضاً وَوَلِدُوا عَلَى رُكْبَتَيْ يُوسُفَ. وَقَالَ يُوسُفُ لِأَخَوْتِهِ: "أَنَا أَمُوتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَيَقْتَدِكُمْ وَيُصْعِدُكُمْ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي حَلَفَ لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ". وَاسْتَحَلَفَ يُوسُفُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلاً: "اللَّهُ سَيَقْتَدِكُمْ فَتُصْعِدُونَ عِظَامِي مِنْ هُنَا". ثُمَّ مَاتَ يُوسُفُ وَهُوَ ابْنُ مِئَةٍ وَعَشَرَ سِنِينَ فَحَنَطُوهُ وَوَضَعُوهُ فِي تَابُوتٍ فِي مِصْرَ" (تك ٥٠ : ٢٢ - ٢٦)

ومات يوسف بعد شيخوخة صالحة.. عن عمر ١١٠ سنة.. أول سنة ١٧ سنة كانت في بيت أبيه.. ثم ١٣ سنة بين العبودية والسجن.. ثم ٨٠ سنة كاملة أصبح فيها سيداً على مصر كلها.. وكان الله يؤكد أنه يعوضه أضعافاً مضاعفة عن السنوات التي تعرّض فيها للظلم.

وأوصى يوسف قبل موته أن يأخذوا جسده معهم ليُدفن في كنعان.. إشارة لإنتمائه لشعب الله.. فلم يرد أن يُمجّد بمجد الفراعة.

وبعد أكثر من ثلاثمائة سنة حمل العبرانيون جسد يوسف العفيف إلى كنعان أثناء رحلة الخروج مع موسى النبي.. "وَأَخَذَ مُوسَى عِظَامَ يَوْسُفَ مَعَهُ لِأَنَّهُ كَانَ قَدِ اسْتَحْلَفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِحَلْفٍ قَائِلًا: «إِنَّ اللَّهَ سَيَقْتَدِكُمْ فَتُصْعِدُونَ عِظَامِي مِنْ هُنَا مَعَكُمْ»" (خر ١٣ : ١٩).

الفهرس

رقم الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
٧	مقدمة الطبعة الأولى
٩	إتجاهات دراسة شخصيات الكتاب المقدس
١١	• ولادة يوسف وطفولته
١٤	• حلم يوسف وحسد أخوته
٢٥	• يوسف فى بيت فوطيفار
٣٢	• يوسف فى السجن
٤٣	• يوسف حاكم مصر
٤٩	• لقاء يوسف الأول بإخوته
٥٧	• لقاء يوسف الثانى بإخوته
٦٥	• يوسف يكشف عن نفسه
٧٩	• موت يوسف